

# مُفَارِقَاتُ الْحَيَاةِ

تأليف

توماس هاردى

مراجعة

احمد هاشمي عباي

ترجمة

عثمان نوية



الناشر

دار الفكر العربي



# مُفَارِقَاتُ الْحَيَاةِ

تأليف

توماس هاردي

مراجعة

احمد مكي عيسى

ترجمة

عثمان بنوية



الناشر

دار الفكر العربي



## الفهرس

الصفحة	
٤	مقدمة
١٠	إمرأة حامله
٤٨	الإبن يعترض
٧١	إراحة لضميره
٩٥	مأساة إملين
١٣٤	فى الجولة الغرية
١٦٩	إرضاء لزوجته

## تصويب

صواب	خطأ	السطر	الصفحة
يسكنهما	يسكنها	١٢	١٣
ووفى	وفى	٦	١٧
جرت	أجرت	٩	١٩
أخي نوري	أخيني	١٤	٢٧
بدا	بد	١٠	٢٨
نظرتيهما	نظرتيهما	٢	٥٠
تجاوز	يجاوز	٨	٩٤
شائها	شانها	٨	١٦٠
الميناء	المياه	٥	١٦٩
العث	العيث	٨	١٨٢

## توماس هاردى

١٨٤٠ - ١٩٢٨

ولد توماس هاردى فى بوكهامبتون على مسافة ميلين من (دوشستر) فى يونية عام ١٨٤٠ ، وتعلم فى هذه المدينة الأخيرة ، ولكنه لم يذهب بعيداً فى مراحل التعليم نظراً لضعف بنيتة ، فوجه همه إلى دراسة هندسة البناء على يد أحد كبار المهندسين ، ونبغ فيها ، ونال جائزة معهد المهندسين البريطانى برسالة كتبها عن الأجر الملون والحرف .

ولكن ذوقه كان جانحاً إلى الأدب . فنظم الشعر ، وعمد إلى كتابة القصة ، وأدى به نجاح قصتيه الأوليين (تحت شجرة جرينود) و(عينان زرقاوان) إلى هجر هندسة البناء نهائياً والاتجاه بكليته للأدب ، قصة وشعرا . وقد نشر معظم قصصه منجمة فى المجلات . ومن هذه القصص «بعيداً عن الجمهور الصاخب» و «عودة المواطن» و «نافخ البوق» و «عمدة كاستربردج» . ومن أواخر القصص التى كتبها «تس سلية دبرفيل» و «الحبوب» و «يهودا المغرور» .

وكتب أيضاً أقاصص منها «أقاصيص وسكس» و «مجموعة من السيدات الفضليات» و «مفارقات الحياة الصغيرة» وهى المجموعة التى بين يدي القارىء ، وإن كنا آثرنا حذف لفظة «الصغيرة» من عنوان

الكتاب ، واكتفينا بست من هذه الأفاصيص لأن السابعة لا تسمو إلى مستوى هذه الأفاصيص الست .

وقرض الشعر قبل أن يكتب القصة ، وعاد إلى الشعر في أواخر حياته مؤثراً إياه على القصة ، ومن جيد ما كتب في الشعر ( قصائد وسكس ) ، و ( قصائد الماضي والحاضر ) . على أن أروع آثاره الشعرية ملحمة ( العواهل ) التي أدارها على نابليون وحروبه .

وقد عمر طويلاً رغم ضعف بديته وعاش معيشة هادئة في الريف ، في تلك المنطقة التي أحبها ، وجعلها مسرح قصصه جميعاً . وهي منطقة ( دوشستر ) التي خلدها باسم ( وسكس ) ، وهي مملكة قديمة كانت في جنوب إنجلترا الغربي .

ومن آثاره الخالدة في أواخر أيام حياته ( المأساة الشهيرة للملكة كورنول ) . وقد منح نوط الجدارة تكريماً له على حسن بلائه في الأدب ، وزاره ولي العهد ليحييه نيابة عن أبيه ، واحتفل به عالم الأدب والفكر . ولكنه كان في هدوئه وعزوفه زاهداً في الجسد ، زاهداً في الشهرة ، زاهداً في الملق والزلفى ، لا عن كراهة للناس أو حقد عليهم ، بل عن هدوء في الطبع ودعة في النفس ورهف في الحس ، وظل في منطقتة الريفية الحبيبة التي اختصها بقصصه جميعاً إلى أن وافاه الأجل في يناير عام ١٩٢٨ . وقد كرم بدفن رماد جثته في وستمنستر . ولكن قلبه لا يزال مدفوناً في إحدى كنائس وسكس .



## منزلته الأدبية :

تسم هاردى ذروة الأدب الانجليزى فى الثلاثين عاما الأخيرة من حياته فكان لا ينازعه منازح فى زعامة الشعر أو زعامة القصة ، وقد اختلف الباحثون فى أمر شعره وقصصه ، فمنهم من يرى ناحية الشعر أقوى فيه من ناحية القصة ، وكان هاردى نفسه يرى هذا الرأى فى أواخر أيام حياته . ومنهم من يرى أن قصصه أسمى من شعره ، فبينما هو يعد من أكبر القصاصين فى العالم فى جميع العصور ، إذا به لا يحظى بمثل هذه المنزلة بين شعراء العالم ، وإن كان من شعراء الصف الأول فى عصره .

ويميل معظم النقاد إلى الأخذ بالرأى الثانى ، ويرون أن شهادة هاردى نفسه لا يعول عليها كثيراً . لأن المرء قد ينخدع عما فى نفسه من نواحي القوة والضعف . وقد لا يحفل بموهبة تهبأت له أو كفاءة توافرت فيه ، بينما يحفل بموهبة أو كفاءة يتخيل وجودها فى نفسه ، أو يود لو توافرت فيه . وقد يؤدى الشعور بالنقص إلى استشعار الكمال .

وهذا الخلاف بين النقاد على شعره وقصصه والموازنة بينهما أمر يفقد كثيراً من أهميته إذا ذكرنا أن قصص هاردى وأفانصيصه هى من جيد الشعر ، إذا جاز للشعر أن يتحرر من قوالبه التقليدية ، ففيها نفحة شعرية تهفو على الروح وتنسم على القلب . كما أن فى شعره روعة القصص ورواؤه . وهذا يتبين جلياً فى ملحمة «العواهل» التى ألمعنا إليها ، والتى يعدها النقاد فى صف المهزلة الإلهية لدانتى والفردوس المفقود للمتون .

وقد حرص هاردى على أن تكون قصصه صورة للحياة فى منطقة

وسكس وأن تعالج مشكلات خالدة ، تعالج الطبيعة الإنسانية وعلاقتها  
بالتقاليد الاجتماعية وظروف الحياة . وإذا كان الإنسان هو الإنسان ،  
والطبيعة البشرية لا تتغير .. كان في قراءة هاردى لذة روحية يستشعرها  
القارئ في كل زمان ومكان .

وتتسم قصصه بطابع الصدق . ولا نغنى بذلك أن حوادثها وقعت  
فعلا ، وإنما نغنى أنها ممكنة الحدوث ، متسقة مع الحياة الواقعية والطبيعة  
البشرية .

وثمة ميزة أخرى لقصص هاردى . ذلك أن علماء الأدب والنقد  
يقسمون القصص إلى نوعين : قصص محكم الخطة وقصص مفكك الخطة .  
ويعنون بالأول ذلك القصص الذى تعد حوادثه ، وتنسق خطته بتدبير  
وإحكام يؤديان إلى نتيجة رسمها الكاتب لقصته . ويعنون بالقصص  
المفكك ما لا يرسم له تصميم ما ، بل يترك أشخاصه وحوادثه تنساب  
ناسيا با طبيعيا لتصل إلى النتيجة التى تنسق مع طبيعة الأشخاص  
والحوادث ، دون اكتراث كبير لخطة أو إحكام أو نهاية مرسومة . بل  
ربما خلا ذهن كاتبه وهو يشرع فى كتابته من فكرة واضحة عما يكون  
سير القصة ونهايتها . ولكل من المذهبين أنصاره وخصومه . ولا يعنينا  
الخوض فى هذا البحث ، وإنما يعنينا أن نشير إليه لنلقى ضوءاً على ناحية  
من نواحي عبقرية هاردى . فأعداء القصة المحكمة يأخذون عليها عدم  
استقامه الشخصيات ، لأن الكاتب كثيراً ما يضحى بها فى سبيل إحكام  
خطته والوصول إلى نهايته المرسومة . وبذا تعجز القصة المحكمة عن أن تخلق

شخصيات خالدة ، تظل حية في خاطر الانسان على مدى الزمان . ولكن هاردى — وهو من كتاب الخطأ المحكمة كأثر لاشتغاله بهندسة العمارة — يشذ على هذه القاعدة فيخلق لنا شخصيات متسقة خالدة لا تنسى . وآية ذلك تلك الأقاويص التي بين يديك . فستقرأ فيها عن «إلا» و «سوفى» و «جوانا» و «مسز هارنهام» و «آنا» وأغلب الظن أنك لن تنسى هذه الشخصيات وأنها ستبقى حية في خاطرك ، حبيبة إلى نفسك . وهكذا يجمع هاردى بين مزايا القصص المحكم والقصص المفكك .

وهناك ناحية أخرى جديرة بالملاحظة في قصص هاردى وأقاويصه هي معيشة أشخاصه منزولين في الريف ، ولعل هذا راجع الى اثاره حياة العزلة وعزوفه شخصيا عن المجتمعات ووضوئها . وفي هذا الريف المنعزل ، الذي جعله مسرح قصصه وأقاويصه ، كان أهم شخص هو مالك الأرض وأسقف الأبرشية . فلا عجب اذا رأينا أمل كثير من الناس أن يكونوا ، أو يكون أبناؤهم ، أساقفة في الكنيسة ، ينعمون بهذا المركز الاجتماعي الجليل .

وقصص هاردى تكاد تخلو من شخص شرير . وإذا لزم أن يكون بعض أشخاصه على جانب من الشر ، حرص على أن يبرر خطأهم أو ضلالهم ، أو يعتذر عنهم في ثنايا القصة ، كما تستبين ذلك واضحا في «مأساة أملين» التي تضمها هذه المجموعة ، والتي تعد بحق أروع مأساة كتبها توماس هاردى . أما مسئولية ما يصيب أشخاصه من سوء — وهي التي يلقبها القصاصون على وغد القصة عادة — فإنه يلقبها على الصدفة السيئة ، أو على حقيقة غامضة في الطبيعة البشرية ، أو ما إلى ذلك ، ويأبى أن

يحملها انساناً شريراً بالمعنى الدقيق . وما نحسب إلا أنه تكلف جهداً كبيراً كي لا يصور أحد بنى الانسان وغداً . ولا نرى مبرراً لهذا الجهد الذى بذل ، وإن كنا لا نتأكد أن نحى فيه حذبه على بنى جنسه ، وحبه إياهم ، وتقديره لظروفهم .

ونحن إذا قرأنا قصصه أو أفاصيصة ، أحيينا أشخاصه لما نلصق فى قلوبهم من عطف وحب وشاعرية ، لا لما توافر للنساء منهم من جمال ، ولا لما تهبأ للرجال من عبقرية ونبوغ . فمعظم نساته لسن على نصيب كبير من الجمال ، ومعظم رجاله ليسوا نابهين ولا نابغين . . . بل كل هؤلاء وأولئك ناس عاديون يقربهم من نفوسنا ما نلصق فى نفوسهم من حب وعطف وحساسية .

أما أسلوبه فليس مبتكراً ، حتى أن بعض النقاد لا يزونه من أصحاب الأساليب . ويبدو أنه كان يؤثر مادة القصة وحبكتها على كيفية الأداء . وقد تسربت إلى قصصه بعض ألفاظ هندسية من أثر مهنته الأصلية ، كما تسربت إليها بعض ألفاظ الفلسفة والعلوم التى انتشرت وتقدمت على عهده . ومع ذلك فهو من أبرع الكتاب فى الوصف والتصوير ، يستعين على ذلك بالتفصيل الجميل ، الذى يكمل جوانب الصورة ، ويبعث فيها الحياة . وإن كثيراً من هذه الصور لتستحق معاودة القراءة مرات لقيمتها الذاتية ، فضلاً عن أهميتها فى سير القصة .

وهاردى بعد هذا — بل قبل هذا — صاحب فلسفة عن الحياة ، وفهم خاص لبنى الانسان . وتستبين هذه الفلسفة وذلك الفهم من التيارات

المعارضة ، والأغراض المتقلبة ، والحوادث الخارجية الكابحة الغلابة التي  
تتذبذب بينها أفكار أشخاصه وأقوالهم وأعمالهم . وخير ما يقال في هذه  
الموهبة ما قاله سير والتر رالي في تعليقه على رواية ( دون كيشوط ) للكاتب  
الأسباني العالمي سيرفانت :

« إن وظيفة التيهيم والسخرية هي تهدم الآراء والنظريات الخاطئة  
التي يعتقدونها بنو الانسان ، نقداً لا يتجه إلى إحلال آراء أو نظريات أخرى  
محلها ، وإنما يهدف إلى عرض حقائق الحياة بحيث تعلق في صمت على  
آراء الانسان ونظرياته . وحاكم هذا العالم هو الأستاذ الأول في التيهيم  
والسخرية . وقد أتاح لبعض ذوى المواهب أن يكون لهم نصيب في هذا  
الفضل . أما ضعاف الأحلام من بنى الانسان فيحاولون عادة أن يحشدوا  
الحقائق لخدمة النظريات المدللة المكرومة ؛ في حين أن روح الكاتب الجاد  
العميق تدرك أن الحقائق لا تحتل هذه العبودية ؛ ولا تتنع بأن تكف عن  
الكلام حتى يؤذن لها به . بل هي تقتحم طريقها فجأة ، على نحو بعيد  
عن التناسق مثير للدهشة ، إلى خطط الانسان التي نسقها بتدبير  
وإحكام ... فكم من امرىء حسب نفسه بمنجاة من المفاجآت ؛ قد دهمه  
الحب . أو قصمه الموت » .

ولقد كان هاردي من أساطين هذه السخرية العميقة ! وقراءة كتبه  
تحت الخطي بذهن كل قارئ مرهف إلى فهم سخرية الحياة . ومعنى  
هذا في رأى فولر - أن هاردي ينتمى إلى فئة كبار المتأملين ومفسرى الحياة ،  
بأنه لا يقل شأنًا عن سيرفانت وشكسبير ؟

## امراة جالسة

لما فرغ وليم مارشمل من بحثه عن مسكن في سولتزياء، ذلك المصيف المعروف في وسكس العليا ، عاد أدراجه إلى الفندق يبحث عن زوجته . وكانت تسير مع أطفالها على الشاطئ . فأخبره الحمال ذو السمات العسكرية بذلك ، وأشار إلى الناحية التي ينبغي أن يتجه إليها .

— « يا عجبا ! كيف سرت هذه المسافة الطويلة ؟ كادت أنفاسي تقطع من التعب » . كان هذا ما ابتدر به مارشمل زوجته في شيء من الضجر عند ما لقيها . وكانت تقرأ كتابا في أثناء السير . . بينا أطفالها الثلاثة وممر بينهم قد سبقوها بمسافة بعيدة

فأفاقت مسز مارشمل من الحلم الذي ألقى بها الكتاب في أحضانه ، وقالت تجيب زوجها : « نعم ! ولكنك غبت طويلا ، فضجرت من البقاء في هذا المنزل الموحش . وأنا آسفة اذا كنت قد احتجت الى ياول :» — « لقد شق على أن أجده مسكنا يرضيني . وأنت حينما ترين الحجرات التي سمعت بجبال هوائها وتوفر أسباب الراحة فيها تجدنيها مكنتة غير مريحة . فهلا أتيت ورأيت إن كان المسكن الذي اخترته يصلح أولا يصلح ؟ انه ضيق وهذا ما أخشاه . بيد أنى لا أستطيع العثور على خير منه ، فالمدينة شديدة الزحام »

وترك الزوجان أطفالهما والمرية في نزهتهم وسارا ما

كانا متناسبين سنا ، متكافئين مظهرا ، متوافقين في شئون الحياة المنزلية ، ولكن مختلفين مزاجا . . . وان لم يؤد هذا الاختلاف الى تصادم كثير . فقد كان الزوج سهلا سمحا ، والزوجة عصبية حادة الطبع . وكان التباين بينهما شديدا في الذوق والتخيل ، ذينك الأمرين الضئيلين الجليلين . فكان مارشمل يرى في ميول زوجته وأجهااتها شيئا من الحماسة . وكانت ترى في ميوله وأجهااته ضعة ومادية

كان الزوج يحترف صناعة البنادق في مدينة ناقعة تجاه الشمال ، وكان قلبه لا يريم عن مهنته . أما السيدة فخير ما يصورها تلك العبارة العتيقة اللبقة « راهبة الشعر » فقد كانت ( الا ) سريعة التأثر حساسة ، تجفل في اشمئزاز واشفاق من حرقة زوجها ، كلما فكرت في أن كل ما يصنعه انما يهدف الى دمار الأحياء . وكان سبيلها الوحيد لتهدئة هذا الخاطر أن تقنع نفسها بأن بعض هذه الأسلحة ، على الأقل ، سيستخدم عاجلا أو آجلا لاستئصال الهوام المؤذية ، والحيوانات الضارية ، التي تكاد تبلغ شأو الإنسان في بطشه بمن هم أدنى منه مرتبة

ولم تكن ( الا ) فيما مضى قد رأت في صناعة زوجها ما يدعو الى الإعراض عن الزواج منه . فقد حالت بينها وبين ذلك فكرة التزوج بأى ثمن ، تلك الفضيلة الهامة التي تلقنها كل الأمهات الطيبات لبناتهن ، الى أن أخلى بينها وبين وليم ، ومضى شهر العسل ، ووصلت الى مرحلة التفكير والتأمل . فكانت أشبه بشخص عثر في الظلام على شيء لا يدرى كنهه ، فجعلت أفكارها تحوم حوله ، وتحاول أن تعرف قدره :

ترى أهوشىء نادراً عادى؟ أيجوى ذهاباً أم فضة أم رصاصاً؟ أجدع شجرة هوأم قاعدة تمثال؟ أهوكل شىء أم هو لا شىء؟ ولم تصل فى ذلك الى رأى محدد . غير أنها منذ ذلك الحين استبقت حيوية عاطفها بالرثاء لرفيقها ، فى خوله وقلة دماثه .. وكانت ترى لنفسها أيضاً ، مطلقه عنان عواطفها الأثيرية الرقيقة للخيال ، وأحلام اليقظة ، وحسرات الليل ... وما كان هذا ليزعج زوجها لو علم به

كانت صغيرة الحجم ، متناسقة الجسم ، دقيقة البناء ، تمشى فى خفة ، وتكاد تثب فى مشيتها ، وكانت عيناها سوداوين ، يتلألأ فى اناسيها ذلك السائل البراق الذى يميز هذا الطراز من الناس ذوى الروح الشبيهة بروح (الـا) . . . تلك الروح التى طلما صدعت قلوب الأصدقاء من الرجال ، وربما صدعت قلب المرأة نفسها آخر الأمر .

وكان زوجها مديد القامة ، طويل الملامح ، ذالحية سمراء ، ونظرة متأملة . . . يعطف عليها ويتسامح معها وكان يتكلم فى عبارة مقتضبة ، راضياً كل الرضى عن أحوال العالم . التى جعلت صنع السلاح ضرورياً . سار الزوجان حتى بلغا المنزل الذى يبيحشان عنه . وهو يقع فى شارع واسع ، مواجهاً للبحر . وأمامه حديقة صغيرة من نبات دائم الخضرة ، لا يتأثر بالرياح أو بالملح . ويؤدى إلى المدخل درج صخرى . وكان للمنزل رقم كسائر منازل الشارع . ولكن لكبره عن باقى المنازل ، كانت صاحبته تصر على تسميته ( كوبرج هوس ) وإن دعاه كل من عداها ( نيويپاراد رقم ١٣ ) .



هذه البقعة تفيض الآن حياة وجمالاً . أما في الشتاء فينبغي دعم الأبواب بأكياس الرمل ، وحشو ثقوب المفاتيح ، اتقاء للرياح والأمطار التي أكلت طلاء المنزل ، فبانت منه العظام .

قابلتهما صاحبة المنزل في المدخل ، وكانت ترتقب عودة الزوج ، فأرتهما الحجرات ، وأخبرتتهما أنها أرملة وأن زوجها كان صاحب مهنة محترمة ، وقد تركها موته المفاجيء في حالة عوز ، ودافعت في حماسة عن ملاءمة المنزل وصلاحيته .

وأجابت مسرماً شمل بأنها أحببت الموقع والمسكن . غير أنه لصغره لا يناسب أسرتهما ، إلا إذا استأجرت جميع الغرف . فسبحت صاحبة المنزل في بحر من الأفكار ، وبدت عليها خيبة الأمل . فهي في حاجة قصوى لأن يستأجرا حجراتها ، كما قالت في صراحة واضحة . ولكن حجرتين منها يسكنها شاب أعزب ، لا يدفع أسعار الموسم حقيقة ، ولكنه يشغل الحجرتين طول العام . وهو لطيف جداً ، شائق جداً ، لا يتعبها أبداً . فلم تكن السيدة تريد أن تخرجه من أجل إيجار شهر مهما يكن عالياً .

قالت : « ومع ذلك فربما عرض هو أن يخلى حجرتيه بعض الوقت » لم يقبل ذلك ، وعادا إلى الفندق وفي نيتهما أن يطلبوا إلى الوسيط أن يبحث لهما عن مسكن آخر . ولا يكادان يجلسان وتتهيئان لتناول الشاي ، حتى تأتي صاحبة المنزل وتقول إن الشاب الرحيم قد عرض التنازل عن حجرتيه ثارثة أسابيع أو أربعة ، كي لا يحول بين السيدة ونزلاتها الجدد .

فأجاب مارشمل : « هذا كرم منه لا شك، بيد أننا لا نريد أن نضايقه إلى هذا الحد . فقالت في استرسال : « كلا . أو كد لك أن هذا لا يضايقه في شيء فهو يختلف عن معظم الشبان . . هو شاب حالم متوخد حزين شيئاً ما . وهو يؤثر الإقامة هنا حين تصارع الباب عواصف الجنوب الغربي ، وحين يطغى البحر على الشارع ويقفر المكان من الناس ، يؤثرها على الإقامة في الموسم . . فهو في الموسم يفرع إلى حيث أزمع مؤقتاً على سبيل التغيير . . . يفرع إلى عشة صغيرة في الجزيرة المقابلة . » وكانت صاحبة المنزل ترجو بذلك أن ينزلا بدارها .

وعلى ذلك انتقلت أسرة مارشمل إلى منزلها في اليوم التالي ، وبدا المنزل مناسباً أتم المناسبة . وبعد تناول الغداء ، سار مسر مارشمل في اتجاه رصيف الميناء ، وتركت مسر مارشمل أبناءها يلعبون على الرمال . ولبثت هي تنظم أسباب الإقامة . وتختبر هذا الشيء أو ذاك . وتمتحن القوة العاكسة للمرأة في صدر الصوان .

وفي حجرة الجلوس الخلفية ، التي كان يقطنها الشاب الأعزب ، وجدت أثاثاً له طابع يميز هذه الحجرة من سائر الحجرات . فهذه كتب رثة ، من طبعات عادية غير فاخرة قد كدست ، متحفظة متحرجة في أركان الحجرة كأن صاحبها لا يتوقع أن يحلّفه من رواد الموسم من يحفل بالنظر فيها . ووقفت صاحبة المنزل تمحوم عند باب الغرفة لتصلح ما عسى ألا يروق مسر مارشمل .

— « سأجعل هذه حجرتي الخاصة لأن الكتب فيها . على فكره .

يبدو أن الشخص الذي ترك لنا هذه الحجره يقتنى كثيراً من الكتب .  
وأرجو ألا يكون اطلاعى عليها مما يضايقه »

« كلا يا سيدتى لن يضايقه مطلقاً . نعم ، لقد جمع كتباً كثيرة ؛  
ترين منها أنه أديب إلى حد ما . وهو شاعر ، أجل شاعر . وله دخل مالى  
صغير يكفل له أن يقرض الشعر ؛ ولكن لا يكفل له شق طريق إلى الجيد  
والشهرة ؛ لو كان ممن يخفون بذلك » .

— « شاعر !! ما كنت أعلم ذلك » .

وفتحت مسز مارشمل أحد الكتب وقرأت اسم صاحبه فى صفحة  
العنوان .

— « يا عجبا ! إني أعرف اسمه جيداً . . . روبرت ترو . . لا شك أنى  
أعرفه وأعرف مؤلفاته . فهل هاتان الحجرتان اللتان أخذناهما إذن حجرته ؟  
وهل هو إذن الشخص الذى أخرجناه من منزله ؟ » .

وبعد بضع دقائق كانت ( إلا مارشمل ) جالسة وحدها تفكر فى  
دهشة وشغف فى روبرت ترو . والشرط الأخير من حياتها يفسر هذا  
الشغف خير تفسير . فقد كانت ( إلا ) الابنة الوحيدة لأديب مجاهد .  
وبدأت هى منذ سنة أو سنتين تنظم الشعر ، تحاول أن تجد فيه متنفساً  
ملائماً لمواطنها وما تنطوى عليه من ألم مكبوت . فقد غاض صفاؤها ومرحها  
من أثر الركوند الناشئ عن تشابه الحياة المنزلية ، ومن الكآبة التى  
جلبها إنجاب أطفال من أب غير نجيب . وكانت تديل قصائدها بتوقيع  
مستعار يحمل اسم رجل ، وتشرها فى مجلات مختلفة غير ذاتة . وقد أتيح

لشعرها أن يظهر مرتين في مجلتين ذائعتين . وفي ثانية هاتين المرتين كانت الصفحة التي تحمل شعرها مطبوعاً بالخط الدقيق ، تحمل في صدرها آياتاً بالخط الواضح في نفس الموضوع ... لهذا الشاعر عينه ، روبرت ترو . فقد تأثر كل من الشعارين بمأساة روتها الصحف اليومية ، فألهمته شعراً ، وقد علق محرر المجلة على هذا التوافق قائلاً إن روعة القصيدتين قد حملته على نشرها معا .

وبعد ذلك صارت ( إلا ) أو ( جون أبني ) ترقب في اهتمام وشغف كل ما ينشر من شعر بتوقيع ( روبرت ترو ) الذي أبى عليه تشبته برجولته . أن يخطر بباله مرة أن يتنكر باسم امرأة . ولكنها وجدت مبرراً للخالفة نهجه وتوقيعها باسم رجل . فمن من الناس يؤمن بموهبتها إذا عرف أن ما يطالع من شعر عاطفي هو لزوجة صانع مكودون مغموور في زحمة الحياة ... ولدت ثلاثة أطفال من أب واقعي عادي يصنع الأسلحة الصغيرة ؟

كان شعر ترو يخالف شعر أوساط الشعراء المحدثين كان يبدو فيه التأثير أكثر مما يبدو فيه الابتكار ، ويتسم بالعاطفة المشبوبة أكثر مما يتسم بالنظم الحكم . ليس شعرا رمزيا وليس نظماً مسفا . وكان متشائماً ، إذا صح إطلاق هذه الصفة على من ينظر إلى أسوأ المصادفات في حياة الانسان ، كما ينظر إلى أحسنها سواء بسواء . وكان لا يستهويه رواء النظم والقافية كما يستهويه المعنى ، فهو إذا قصرت سرعته الفنية عن مجاراة تدفق أحاسيسه ، دس في قصائده مقطوعات مرسله على طريقة الشعراء في عصر اليصابات . وكان خيرأله ، في رأى كل ناقد منصف ، أن يتجنب ذلك .

وفى غيرة حزينة يأسه كانت (إلا مارشمل) تبدأ وتعيد دراسة شعر منافسها ، الذى كان دائماً على درجة من القوة لا يقاس إليها شعرها الهزيب . ولكن قصورها عن بلوغ شأوه كثيراً ما يلقى بها فى نوبات شديدة من اليأس . وهكذا مرت أشهر حتى قرأت يوماً فى قائمة الكتب الجديدة أن (ترو) قد جمع قصائده المتناثرة فى ديوان . وما لبث الديوان أن صدر ، ولقى من الثناء ما شاءت الظروف كثرة وقلة . وفى ثمن ما بيع من نسخه بنفقات الطبع .

هذه الخطوة التى خطاها (ترو) أوحى إلى (جون أيفى) أن تجمع ، هى الأخرى مقطوعاتها — أو قل — أن تصدر ديواناً يضم قصائد كثيرة مخطوطة إلى القليلة التى شهدت النور على صفحات المجلات . وكلفها الطبع نفقات باهظة . . . ولم يحس بظهور هذا الديوان الصغير المسكين الا قليل من المجلات . ولم يعلق عليه أحد . ولم يشتريه أحد . . . فخر صريعاً فى أسبوعين . . . لو صح أنه شهد الحياة لحظة واحدة .

وكانت أفكار الشاعرة حينئذ متجهة صوب هوة أخرى . . . فقد عرفت أنها ستلد طفلاً ثالثاً . ولعل مشاغلها المنزلية قد خفت من أثر شعورها بالفشل فى مغامرتها الأدبية . ودفع زوجها فى وقت واحد ما يستحقه الناشر وما يستحقه الطبيب . وانتهى كل شيء الى حين . على أن (إلا) إذا كانت أقل شأنًا من شعراء عصرها فقد كانت أجل شأنًا من مجرد أداة لإكثار الجنس البشرى . اذ عاودها أخيراً الهامها القديم ، وهما هى ذى تجد

تنفسها صدفة واتفاقاً في حجرات روبرت ترو .

ها هي ذى تنهض من مقعدها مفكرة ، وتدرس المكان بروح زميل المهنة .. نعم ها هو ذا ديوانه بين الكتب الأخرى . ومع أنها تعرف كل ما فيه تمام المعرفة ، فقد أعادت قراءته هنا ، وأحست كأنما يتحدثها في صوت مرتفع . ثم نادى مسز هوپر ، صاحبة المنزل ، متعلة بطلب تافه وجعلت تستفسر منها ثانية عن الشاعر الشاب .

— « أنا واثقة يا سيدنى أنك سوف تعجبين به إذا رأيته .

غير أنه شديد الحياء ولا اخالك ستريته » .

وكانت ( مسز هوپر ) ترحب بالتحدث الى صاحبته بأخبار سلفها — « هل عاش هنا طويلاً ؟ »

— « نعم . حوالى سنتين . وهو يحتفظ بمجرتيه حتى إذا غادر المدينة لأن هواء هذا المكان رخي يفيد صدره . ولذا يجب أن تظل هاتان الحجرتان له ، يعود اليهما وقتما يشاء . وهو يقضى وقته دائماً في الكتابة أو القراءة ، ولا يختلط بكثير من الناس ، مع أنه شاب طيب رقيق . ولو عرفه الناس لسروا بصحبته سروراً لا يوصف .. فما أندر ذوى النفوس الطيبة » .

— « هو اذن طيب القلب » .

— « نعم . انه لا يرد لى طلباً ، وأحياناً أقول له : « مستر ترو ،

انك حزين ، فلم لا تتلمس الترويح عن نفسك بالتغيير ؟ » فلا يمضى يوم

أويومان حتى يقول إنه أزمع الرحيل إلى باريس أو الترويج أو غيرها .  
وأؤكد لك أنه يعود من الرحلة أطيب مما كان .

— « آه . إنه ذو مزاج حساس من غير شك » .

— « نعم . ولكنه عجيب في بعض أطواره . انتهى مرة من نظم  
قصيدة في ساعة متأخرة من الليل ، فجعل يذرع الحجر ذهاباً وجيئة مترنماً  
بقصيدته . ولما كان السقف رقيقاً والنزل واهى البناء — وأنا أقول هذا دون  
حرج — فقد أرقني معه حتى تمتيت فراقه . على أننا نحيا مع ذلك في  
وثام تام » .

وكانت هذه فاتحة أحاديث أجرت مع الأيام عن الشاعر الناهض .  
وحدث ذات مرة أن وجهت ( مسز هوير ) نظر ( إلا ) إلى شيء لم  
تلحظه من قبل ، إلى كتابة دقيقة سريعة بقلم الرصاص على ورق الخائط  
خلف الستائر عند رأس السرير .

— « أوه — دعيني أنظر » قالتها مسز مارشمل وقد عجزت عن  
إخفاء دفعة من الفضول الخنون ومال وجهها الجميل على الخائط .

قالت ( مسز هوير ) في لهجة المطلع على بواطن الأمور ! « هذه هي السودات  
الأولى لشعره . وقد حاول أن يمحو معظمها ، ولكنك تستطيعين قراءة  
بعضها . وأنا أعتقد أنه يصحو في الليل وبعض الشعر في رأسه ، فيسارع إلى  
إثباته هنا على الخائط ، قبل أن يمحوه الصباح من ذهنه .

وبعض هذه السطور التي تزينها هنا قرأتها في المجلات فيما بعد ،

وبعضها حديث عهد ، حقاً إنى لم أقرأ هذه المقطوعة من قبل . إنها لا بد مكتوبة منذ أيام قليلة » .

— « هذا صحيح » .

واحر وجه ( إلامارشل ) دون أن تعرف لهذا سبباً . وأحست فجأة برغبة فى التخلص من رفيقتها بعد أن أدلت بما لديها . فان شعوراً غامضاً بالميل الشخصى إلى الشاعر ، أقوى من الميل إلى أدبه ، قد زين لها أن تقرأ المخطوطات على انفراد . فانتظرت خروج صاحبها ، لتسنى لها هذه الفرصة فتستمع بذخيرة عاطفية ضخمة .

ولعل اصطخاب البحر حول الجزيرة هو السبب فى أن زوج ( إلا ) لم يستصحبها فى زهرته البحرية ، لأنها ممن يتعرضون لمرض البحر . فذهب وحده — دون تورع — على متن أحد القوارب البخارية التى تقوم برحلات زهيدة الأجر ، والتى يرقص الناس على ظهرها فى ضوء القمر ، ويرتمى كل راكب فجأة فى أحضان رفيقه كلما مال القارب ، ويختلط الحابل بالنابل — كما أخبرها فى صراحة — فلا يليق به أن يصطحبها إلى مثل هذه المشاهد .

وهكذا نرى هذا الصانع الناجح يحظى بقسط كبير من التجديد والتنويع وهواء البحر فى أثناء مقامه هنا . بينما حياة ( إلا ) — فى الظاهر على الأقل — تسير على نمط واحد ، يتلخص فى قضاء بضع ساعات فى الاستحمام كل يوم ، والتنزه ذهاباً وحيثة على شريط من الشاطئ . ولكن لما كانت جذوة الشعر قد اتقدت فى قلبها من جديد ، فقد استغرقت فى حناياها لهيب لا يكاد يسمح لها برؤية ما حولها .



وجعلت تقرأ ديوان (ترو) الأخير حتى استظهرته ، وتنفق الساعات الطويلة في محاكاة شعره على غير طائل ، حتى تنفجر دموعها من ألم الفشل . وكان العامل الشخصي في جاذبية هذا الشاعر الذي أحاط بها من كل جانب ، والذي لم تسم قط إلى سمائه ، أقوى كثيراً من العامل المعنوي أو الفكري . ولم تكن تفهم لهذا من علة . واثبات أنها كانت في النهار والليل محوطة بمحيطه المؤلف الذي يهمس به في أذنها كل لحظة همساً مسموعاً . غير أنه رجل لم تره بعد ، ولم يخطر في بالها بطبيعة الحال أن كل ما يثيرها ، إنما هو ميل إلى أن تخص أول رجل ملائم تأتي به الصدفة ، يعاطفها المشوبة المتلفهة .

وكان من الطبيعي ، في الظروف العملية القاسية التي ابتكرتها المدنية لئامها وازدهارها ، أن ينتهي حب زوجها إياها إلى لون من الصداقة ، وقد يساوى صداقتها له وقد لا يساونها .

ولما كانت (إلا) امرأة عاطفية ، مرهفة الحس ، متوقدة الشعور ، تحتاج إلى غذاء يحفظ حيوية عواطفها وتوقدها ، فقد وجدت في هذا الظرف العارض ، غذاء أجود بكثير مما تقدمه الصدفة عادة .

وذات يوم كان الاطفال يلعبون (الاختفاء والتفتيش) في إحدى الغرف الصغيرة . وفي نشوة اللعب جذبوا رداء قالت مسز هوپر إنه لمستر ترو ، واعادته إلى مكانه . فاستحوذ عليها الخيال ، ودفعها إلى انتهاز فرصه خلوص هذا الجزء من المنزل بعد ظهر ذلك اليوم ، فذهبت إلى هذه الغرفة الصغيرة وفتحتها ، وانتزعت رداء . . . معطفا . . . وارادته ثم لبست القبعة الخاصة

به « رداء اليجا ! ! وددت لو أنه ألهمنى شعرا رائعا كشعره . . . ذلك العبقري الفذ ! »

وكانت عيناها تدمعان كلما سبحت في مثل هذه الأفكار فالتفتت إلى المرأة تتأمل نفسها فيها . لقد خفق قلبه في داخل هذا المعطف . وسما عقله تحت هذه القبعة إلى آفاق من الفكر ليس لها بها قبل . وأدى إحسانها بضعفها بالقياس إليه ، إلى شعورها بالسقم والمهم . وقبل أن تخلع ملابسه فتح باب الحجرة وكان القادم زوجها .  
— « ماذا تصنعين ؟ »

فاحمر وجهها خجلا وخلعت المعطف والقبعة وهي تقول : « لقد وجدتهما هنا فبدلى أن أعبت بهما وأرتديهما . . . ماذا عساي أن أصنع غير ذلك وأنت دائما خارج المنزل ؟ »  
— « دائما خارج المنزل ؟ هذا صحيح »

وفي هذا المساء دار حديث جديد بينها وبين صاحبة المنزل ، ولعل هذه كانت تطوى في أعماقها شيئا من الحنو على الشاعر . فكانت على الدوام متأهبة تمام الأهبة للتحدث عنه في حرارة وجماسة . قالت (لإلا) :  
— « أنا أعلم ياسيدتى أنك مهتمة بمسرترو . وقد أرسل منذ مدة قصيرة ، يقول إنه سيهزوني غداً بعد الظهر . ويرجو أن أكون بالمنزل ، لأهيه له الإطلاع على بعض كتب هو في حاجة إليها ، وقد يختارها من حيزتك ، فهل تسمحين ؟ »  
— « بكل ارتياح »

« انك تستطيعين إذن أن تقابلي مستر ترو إذا بدا لك أن  
تظلي في الحجرة ».

فوعدت أن تفعل ، وهي تستشعر سروراً خفياً . وذهبت إلى مخدعها  
تسبح في أفكارها .

وفي الصباح التالي يقول لها زوجها : « لقد فكرت فيما قلته يا (إلا) ،  
فأنا حقيقة أخرج كثيراً وأتركك وحدك لا يسليك شيء ، لذا سأخذك اليوم  
والبحر هادىء إلى نزهة باليخت .

ولأول مرة في حياتها لم تطرب لمثل هذا العرض ، وإن قبلته مؤقتاً .  
واقرب موعد النزهة وهمت تستعد لها : ولكنها وقتت تفكر . وسرعان  
ما تقلب شوقها إلى رؤية الشاعر الذى تحبه على كل اعتبار آخر . فقالت  
لنفسها : « أنا لا أريد أن أخرج .. أنا لا أحتمل مغادرة المنزل ولن أعادده »  
وقالت لزوجها إنها عدلت عن فكرة النزهة . فلم يكثر ،  
وانصرف لشأنه .

وفي الشطر الباقى من النهار ساد البيت هدوء وسكون . فالاطفال  
بعيدون يلعبون على الرمال . والستائر تموج فى ضوء الشمس ، مجاوبة موجات  
البحر التى تمفق فى رفق متصل فيما وراء الحائط . ومعظم النزلاء قد خفوا  
لاستماع ( سيليزيا الخضراء ) وهى فرقة موسيقية أجنبية مستأجرة لمدة  
الموسم . فندر السكان والسابلة فى جوار ( كوبرج هوس ) .  
وسمع طرق على الباب ولكن لم تسمع ( مسز مارشمل ) أحد الخدم

يجيب الطارق ، فشعرت بالقلق وهي جالسة في حجرة الكتب . بيد أن  
أحداً لم يقدم . فضغطت على الزر الكهربي .

— « إن بالباب شخصاً ينتظر »

فقالت الخادم : « كلا ياسيدتي لقد أجبته وانصرف منذ زمن طويل .  
وأنت ( مسز هوير ) وهي تقول : شيء مؤلم . . مستر ترو لن يأتي بعد  
كل هذا »

— « ولكن يخيل إلى أني سمعته يطرق الباب »

— « لم يكن هو وإنما كان شخصاً يبحث عن مسكن وأخطأ  
العنوان . لقد فانتى أن أخبرك أنه أرسل خطاباً قبل الغداء يقول فيه ألا  
داعى لاعداد شاي له ، لأنه في غير حاجة إلى الكتب ، ولن يأتي لاختيار  
شيء منها »

فشعرت ( إلا ) بالتعاسة ، وظلت وقتاً طويلاً لا تستطيع قراءة أغنيته  
الباكية عن ( الأرواح الشنتية ) . وكم كان قلبها الصغير الحائر موجعاً  
محزوناً ، وكم فاضت عيناها بالدموع . ولما عاد الأطفال بجواربهم المبتلة ،  
وأسرعوا إليها يحدثونها بمغامراتهم لم تشعر أنها تحفل بهم نصف ما كانت  
تحفل بهم عادة

\* \* \*

— « مسز هوير : أديك صورة للشاب .. الذي كان يسكن هنا ؟ »

فقد بدأت تشعر بجحبل عجيب من ذكر اسمه .

« عندى طبعاً . وهى ياسيدتى فى إطار الزينة ، فوق رف الموقد فى حجرة نومك »

— « كلا . ليس فى الإطار سوى صورة الدوق والدوقة »

« نعم . ولكنه من خلفهما . إن هذا الإطار يناسبه تماماً ، وقد اشتريته من أجله ، غير أنه حينما هم بمبارحتنا قال لى : ( بالله إلا حجبت وجهى عن هؤلاء الغرباء النازلين عندك . فأنا لا أريدكم أن يمدقوا فى وجهى ، وأنا واثق أنهم أيضاً لا يريدوننى أن أحقق فى وجوههم ) لذا أسدلت على صورته مؤقتاً صورة الدوقين ، ولم يكن لها عندى إطار . وصور الأمراء أبقى بالحجرات المؤجرة من صورة شاب عادى . ونزعى صورة الدوقين تجديده من ورائهما . . . بالله ياسيدتى لو أنه قرأ المستقبل لما اشترط هذا الشرط . . . إنه لم يقدر أن تكون نزيلة حجرته من بعده سيدة شائقة إلى هذا الحد . ولو أنه علم ، لما فكر فى إخفاء نفسه »

فسألت ( إلا ) فى توجس : « وهل هو وسيم ؟ »

— « أنا شخصياً أعده وسياً . وقد لا يعده غيرى كذلك » .

فسألت فى تلهف : « وهل أنا ممن يعدونه وسياً ؟ » .

— « أظن . وإن كان بعض الناس يقولون إن الجاذبية أظهر فيه من الوسامة . فهو شاب واسع العينين ، دائم التفكير ، تومض عيناه وميضاً كهريباً إذا ما تلفت حوله بسرعة . . هو ما تنتظرين من شاعر لا يتخذ شعره أداة للتكسب » .

— « وما سنه ؟ » .

« أ كبر منك بسنوات يا سيدتى . أظنها حوالى الواحدة والثلاثين ،

أو الثانية والثلاثين » .

وكانت سن ( إلا ) فى حقيقة الأمر تزيد بضعة أشهر على الثلاثين .  
ولكنها كانت تبدو أصغر بكثير . ومع أن طبيعتها لم تنضج بعد ، فقد أشرفت  
على مرحلة من مراحل العمر ، تتوجس فيها النساء العاطفيات من أن يكون  
الحب الأخير أقوى من الحب الأول . لقد أوشكت أن تنتقل — ويا للأسف —  
إلى دور أكثر كآبة وحزنا ، هو الدور الذى تجفل فيه السيدات —  
وخاصة المرهفات — من لقاء الزائرين من الرجال ؛ إلا وظهورهن إلى  
الحائط وستائرهن مدلاة إلى منتصفها . فكرت فيما قالته مسز هوپر ولم تشر  
ثانية إلى السن .

وفى تلك الأثناء جاءت برقية من زوجها تنبئ أنه أبحر فى القنال  
حتى ( بلموث ) فى يمت مع رفاقه ، وأنه لن يستطيع العودة إلا فى الغد .  
وبعد أن تناولت ( إلا ) وجبة خفيفة جعلت تدرع الشاطئ مع بنيتها  
حتى الغسق ، مفكرة فى صورة فى حجرتها لم يطم عنها اللثام بعد ، وهى تمس  
إحساساً ينياً أن شيئاً مثيراً سوف يقع . وبهذا الخيال المرهف الزاخر الذى  
تمخذه هذه السيدة ، لم تصعد الدرج ترواً ، وتفتح الإطار ، بل آتت — ما دام  
زوجها لا يحضر هذا المساء — أن تؤجل رفع الستار عن الصورة ريثما  
تنفرد فى الحجره .. ويضفى رواء على الموقف سكون الليل ، وضوء الشموع ،  
وهدوء البحر ، وتلاؤ النجوم فى السماء .. فهذا خير من عرضها للنور الفصاح  
ساعة الأصيل .

أوى الأطفال إلى فراشهم ، وأوت ( إلا ) الى مضجعها ، وإن كانت الساعة لم تبلغ العاشرة . ولتشبع ميلها المستهام لرؤية الصورة ، أخذت في الاستعداد ، فخلعت ملابسها الزائدة عن الحاجة ، وارتدت ثوباً فضفاضاً ، وأعدت مقعداً أمام المنضدة . وجعلت تقرأ صفحات من أرق شغره الغزلي ، ثم أحضرت أطار الصورة وفتحته من الخلف ، وأخذت صورة الشاعر ونصبتها أمامها .

كان وجه الشاعر ذا تأثير في الناظر اليه ، وله شارب أسود غزير ، ولحية صغيرة ، وقبعة مسترخية الحواف ، تلتقي ظلا على جبهته ، أما العينان السوداوان الواسعتان اللتان وصفتهما السيدة ، فقد كشفتنا عن حالة من اليأس لا خد لها . فهما ترنوان من تحت حاجبين منسقين كأنما تتأملان الكون في عالم صغير هو الوجه الذي تنظران ، ولا يستخفهما الطرب لما تشهدان مهما كان .

فهمست ( إلا ) في أخفت أنغامها وأحلاها وأرقها : « أهو أنت القاسى الذى أجبني كل هذه المرات ؟ » ولما أطالت النظر إلى الصورة غرقت في الخيال حتى أغرورقت عيناها بالدموع ، ومست الصورة بشفتيها ، ثم ضحكت في خفة عصبية وجفت عينيها .

وما لبثت أن رأت نفسها امرأة شريرة حقا . . لها زوج وثلاثة أطفال . ثم تدع عقلها ينحرف إلى رجل غريب بهذه الطريقة المزرية ؟ . . كلا ، ولكنه غير غريب . إنها تعرف عن أفكاره ومشاعره ما تعرف عن أفكارها ومشاعرها . فهو يوائمها تمام اللوامة . أما زوجها فخلو من هذه الأفكار

والشاعر . وربما كان هذا من حسن حظ رجل يعول أسرة « إنه أقرب إلى ذات  
نفسى ، وأوثق صلة بأعماق روحى من (ول) مع أنى لم أره قط » . ثم وضعت  
ديوانه وصورته على المنضد المجاور للمخدع . واضطجعت على الوسادة وبمادت  
إلى قراءة قصائده ، التى تراها أعظم شعره تأثيراً وصدقاً . ثم نحت الديوان  
ووضعت صورة الشاعر رأسية على الوسادة . وجعلت تحديق فيها وهى  
مستلقية ، ثم عادت تختبر فى ضوء الشمعة الأشعار المكتوبة بقلم الرصاص  
على ورق الحائط بجانب رأسها . ها هى ذى ألقاظ .. وأبيات .. وأوائل سطور  
وأواسطها .. مسودات أفكار كقصاصات شلى .. أتفهنها قوى حلو خفاق .  
وأحست كأنما أنفاسه الحارة المحبة تنسم على خديها من هذه الحوائط ..  
الحوائط التى طالما أحاطت برأسه كما تحيط الآن برأسها . لا بد أنه كان يرفع  
يده هكذا ممسكا بالقلم . نعم . فالكتابة مائلة بما يدل على أنه حين كتبها  
كان يمد يده هكذا .

هذه الصورة المخطوطة لدنيا الشاعر (رسوم تفوق فى حيويتها الإنسان  
لحى نفسه . رسوم ابدعتها يد الخلود) كانت لا ريب من وحي الأفكار  
والتسامى الروحى الذى يختلف عليه فى سكون الليل . فيطلق نفسه على  
سجيتها غير مكترث بوخز النقاد . لا بد أنه كتب كثيراً منها فى سرعة على  
ضوء القمر ، أو أشعة المصباح ، أو نور السحر ذى اللون الأزرق الأغبش . أما  
فى وهج النهار فلا إخاله كتب شيئاً . والآن ها هو ذا شعرها يتدلى إلى حيث  
كانت ذراعه وهو يقيد شوارده . إنها تنام الآن على شفقى شاعر ، غارقة  
فى صميمه ، موغلة فى روجه كما توغل فى الآثير .



وظلت تحلم على هذا النحو، والوقت يمضى، حتى سمع وقع أقدام على الدرج، ثم لم تلبث أن سمعت وقع خطى زوجها الثقيلة خارج الحجرة مباشرة.

— «إلا. أين أنت؟» .

فملكتها شعور لا تستطيع وصفه. غير أنها في اعتراض غريزي على أن يعرف زوجها ما هي بصدده، أخفت الصورة تحت الوسادة حين دفع الباب بطريقة تشعر أنه تناول عشاء لا بأس به.

— «أوه — أنا آسف. أتشعرين بصداع؟ أخشى أن أكون

أزعجتك» .

— «كلا ليس عندي صداع.. ولكن كيف استطعت أن تأتي؟» .

— «وجدنا أخيراً أننا نستطيع العودة في وقت ملائم. ولم أشأ أن

أضيق هناك يوماً آخر، لأنى سأذهب غداً إلى مكان سواه» .

— «هل يلزم أن أبارح فراشى مرة أخرى؟» .

— «كلا — إني مكدود جداً. وقد أكلت جيداً وسأنام مباشرة.

وأريد أن أخرج غداً في الساعة السادسة صباحاً إن استطعت، ولن أفلتك

حين أستيقظ، فسأخرج قبل أن تستيقظى بوقت طويل» .

وأوغل في داخل الحجرة، وبينما كانت عيناها تتبعان حركاته، دفعت

بيدها الصورة في رفق، بعيداً عن الأنظار.

— «طبعاً لست مريضة؟» سألها هذا السؤال وهو يميل عليها.

— «كلا. إني فقط متضايق» .

— « دعيك من هذا » ومال عليها وقبلها « لقد أردت أن أقضى  
معك هذه الليلة » .

وفي الصباح نودي علي مارشل في الساعة السادسة ، وبينما هو يفتح  
عينيه ويتأهب ، سمعته يغمغم : « يا للشيطان . ما هذا الذي كان يقع تحت  
رأسي ؟ » . وحسبها نائمة ، فجعل يبحث حوله ، ثم جذب شيئاً استطاعت  
بعينها المفتوحتين قليلاً أن تتبين أنه صورة مستر ترو . وقال متعجباً :  
« أي شيء هذا الذي أرى ؟ » فتساءلت زوجته .

« ماذا يا عزيزي ؟ » .

— « أوه . أنت صاحبة ! هاها » .

— « ماذا تعني ؟ » .

« صورة شاعر ، صديق لصاحبة المنزل علي ما أظن ، ترى ما ذا أتى  
بها إلى هنا . ربما انتقلت من الرف عرضاً وهم يعدون الفراش . . . جازئ » .  
— « لقد كنت أنفرج عليها أمس ، ولا بد أنها بقيت هنا منذ  
ذلك الوقت » .

— « أوه . أهو صديقك ؟ بارك الله في قلبه الشاعر » .

وكان وفاء (إلا) للرجل الذي اعجبت به لا يسمح لها بأن تدعه هادفاً  
للسخرية . « إنه رجل كفاء » كذلك قالت في صوت هاديء مرتعش . .  
رعشة شعرت هي نفسها ألا مبرر لها . « إنه شاعر ناهض . إنه الرجل  
الفاضل الذي كان يسكن هاتين الحجرتين قبلنا . وإن كنت لم أره قط » .  
« وكيف تعرفين عنه شيئاً إذا كنت لم تريه قط ؟ »

— « حدثتني به مسز هوپر حين أرثني الصورة » .

— « سأترك الفراش الآن وأمضي . ولن أتاخر في العودة . وأنا

آسف إذ لا أستطيع أن أصطحبك اليوم يا عزيزتي . فراقبي الأطفال  
ولا تدعيمهم يفرقون » .

وفي هذا اليوم سألت مسز هوپر « هل من المحتمل أن يأتي مسترترو  
إلى المنزل في أى وقت آخر ؟ » .

فأجابت مسز هوپر : « نعم . سيأتي في مثل هذا اليوم من الأسبوع  
القادم ، ليقم مع أحد أصدقائه قريباً من هنا حتى تسافروا . ومن المؤكد  
أنه سيزرونا » .

وبكر مارشمل بالحضور ، فأنى بعد الظهر بقليل ، وبعد أن قرأ بعض  
خطابات وصلت في غيبته ، أعلن فجأة أن عليهم جميعاً أن يسافروا قبل موعدهم  
بأسبوع ، أى بعد ثلاثة أيام . فقالت في ضراعة : « مؤكداً أننا نستطيع  
البقاء هنا أسبوعاً آخر . أنا أحب هذه البقعة » .

— « وأنا لا أحبها .. لقد بدأ شىء من الكآبة يغشاها » .

-- « إذن سافر واطركنى أنا والأطفال » .

— « ما أشد عنادك يا (إلا) : ما الفائدة من ذلك ؟ وهل آتى إلى

هنا مرة ثانية لاستصحابكم في العودة ؟ كلا فلنعد معاً . وقد نذهب إلى ويلز  
الشمالية أو بريتون فيما بعد ، لقضاء بعض الوقت . ومع ذلك فلا يزال أمامك  
ثلاثة أيام هنا » .

وكانما حكمت عليها الأقدار بالألا تلقى الرجل الذى أعجبت بنبوغه

كل هذا الإعجاب ، وأحبت شخصه أعمق الحب . فصممت على أن تقوم بمحاولة أخيرة لتلقاه . فقد فهمت من صاحبة المنزل أن تروى يعيش في بقعة منعزلة ، قريبة من مدينة حديثة الطراز في الجزيرة المقابلة . فعبرت البحر إلى تلك الجزيرة ، في قارب من المرسى المجاور ، في عصر اليوم التالي .

وكم كانت رحلة مخيبة للآمال ! كان لدى ( إلا ) فكرة غير واضحة عن موقع المنزل . وحينما خيل اليها أنها عثرت عليه ، وجروّت أن تسأل أحد السابلة : « هل مستر تروى يقيم هنا ؟ » كان جوابه إنه لا يدرى . وحتى إذا فرض أنه يقيم هناك ، فكيف كانت تستطيع أن تزوره ؟ ربما استطاعت ذلك بعض النسوة الجليليات .. ولكن أين هي من هؤلاء ؟ إنه ليظنها مغرقة في البله والطيش لو فعلت ذلك . وربما كانت تستطيع أن تدعوه لزيارتها . ولكن ليس لديها من الشجاعة ما يمكنها من ذلك . فجعلت تتجول في تمهل — وهي كئيبة محزونة — على الشاطئ المرتفع الرائع ، حتى إذا آن أوان العودة إلى المدينة . ركبت القارب البخارى ، ووصلت إلى منزلها وقت العشاء ، دون أن يكون أحدها قد أحس كثيراً بغيابها .

وفي اللحظة الأخيرة قال زوجها على غير انتظار أن ليس لديه ثمة مانع من تركها مع الأطنال حتى نهاية الأسبوع ، ما دامت تريد ذلك .. هذا إذا كانت تشعر باستطاعتها العودة من دونه . فأخفت سرورها بهذه المدة الإضافية . وفي الصباح سافر ( مارشمل ) وحده .

ولكن مضى الأسبوع دون أن يبدو أثر لتروى .

وفي صباح السبت غادرت (إلا) وأطفالها ذلك المكان الذي أثار فيها حينئذ وحيرة بالغين . ها هو ذا القطار الكئيب ، وها هي ذى الشمس تسطع في أشعة يشوبها الغبار على الوسائد الحرى . وها هو ذا الطريق الأغبر الذي لا ينتهى . وهذه أسلاك البرق الحقيمة . . ظلت هذه الأشياء تلازمها في الرحلة ، بينما كانت تشهد من خلال النافذة صفحة الماء الأزرق العميق تتوارى ، ومنزل شاعرها الرقيق يختفى . إنها مثقلة القواد . لقد حاولت أن تقرأ ، ولكنها يكت وطوت الكتاب .

وكان مستر مارشمل تاجراً راجحاً يقطن مع أسرته في منزل جديد واسع ، يقع في وسط أرض شاسعة تبعد بضعة أميال عن مدينة الوسط ، مقر أعماله ، وكانت (إلا) تحيا في عزلة ، شأن سكان الضواحي في أغلب الأحوال ، وخاصة في مواسم معينة . فكان وقتها يتسع لإشباع ميلها للأدب العاطفي وشعر الرثاء . وما كادت تعود إلى منزلها حتى وجدت قطعة لروبرت ترو في العدد الأخير من مجلتها المختارة ، كتبها من غير شك قبيل زيارتها لسولنتزيا مباشرة ، إذ كانت تحوى نفس الأبيات التي رأتها مكتوبة بقلم الرصاص على ورق الحائط المجاور للسرير ، وقالت عنها مستر هوپر إنها إنتاج حديث .

لم تستطع وقتئذ أن تتمالك شعورها كما كانت تفعل ، فأمسكت بقلم الرصاص في تأثر وكتبت إليه باسم شاعر زميل (جون ايفى) مهنته إياه بتوفيقه الفذ في اختيار الوزن والتمافية، وتنسيق الأفكار التي تحرك وجدانه، وقارنت ذلك بمحاولاتها الفاشلة في نفس الصناعة العاطفية .

فجاء رد بهذا الاسم بعد أيام قليلة ، رغم أن (إلا) لم تك تجرؤ على الأمل في ذلك . وكان خطابه مؤدباً موجزاً ، ذكر فيه الشاعر الشاب أنه وإن كان لم يقرأ لجون أيفي شعراً كثيراً فإنه يذكر أنه رأى توقيعته تحت قصائد تبشر بمستقبل زاهر في الشعر . وأنه سعيد إذ يتعرف على مستر أيفي بالمراسلة ، وأنه سوف يتتبع إنتاجه في المستقبل .

فقلت لنفسها: لا بد أنه كان في خطابها الذي أمهرته باسم رجل شيء ينبيء عن صغر السن أو التهيّب . لأن (ترو) استعمل في رده لهجة من هو أكبر سناً وأعلى منزلة . ولكن ماذا يهم في هذا ؟ لقد حظيت بجوابه ، وكتب إليها بذات يده ، من هذه الحجرّة ذاتها التي تعرفها حق المعرفة ، لأنه عاد إليها وقتئذ .

واستمرت المكاتبة التي بدأت على هذا النحو ، شهرين أو يزيد . وكانت (إلا) ترسل إليه من وقت لآخر بعضاً من خير قصائدها ، فكان يتقبلها في أدب جم ، وإن كان لا يصرح بأنه قرأها في شغف واهتمام . ولم يرسل إليها شيئاً من قصائده رداً عليها . وكان هذا من شأنه أن يؤذى شعور (إلا) ، لولا علمها أن ترو يكتب إليها وقد تأثر باسمها المستعار ، وحسبها أحد أفراد جنسه .

ولكن هذا موقف لا يُرضى . فإن صوتاً مغرياً همس في خاطرها أن الشاعر لو رآها لتغير الموقف . ولا ريب أنها كانت ستبدأ حديثها معه ، باظهاره على جليلة الأمر ، والاعتراف بأنها امرأة ، لولا أن حدث ما أراح بالها وأغناها عن ذلك . فها هو ذا صديق لزوجها ، يشتغل محرراً للكبرى خرائد

المدينة والمقاطعة ، يتغدى عندهم ذات يوم ، ويذكر في أثناء الحديث عن الشاعر، أن أخاه الرسام صديق لمسترترو ، وأنه وإياه يتزهان في ( ويلز ) في نفس تلك اللحظة .

وكانت ( إلا ) تعرف أخا المحرر معرفة طفيفة ، فكتبت إليه خطابا في الصباح التالي تدعوه لقضاء بعض الوقت عندها في عودته من ( ويلز ) وترجوه أن يحضر معه — إن أمكن — صديقه مستر ترو فانه يهمها أن تتعرف به . وجاء رد الرسام بعد أيام قليلة يقول إنه وصاحبه ( ترو ) يسرها كثيراً أن يليبا دعوتها في عودتها إلى الجنوب . وسيكون ذلك في يوم كذا من الأسبوع القادم .

فقرحت ( إلا ) وطارت سروراً ، فقد نجحت خطتها وسيحضر حينها الذي لم تره قط : « انظري . إنه يقف من وراء الحائط يرنو إلى النوافذ . ويبدو من خلال روافدها » كذلك كانت تفكر في مرح ونشوة « وانظري . لقد ولى الشتاء وانتهى المطر إلى غير رجعة ، وتبدت الأزهار وحل أوان التغريد والنشيد . وها هو ذا سجع القصرى يتردد في ديارنا » وكان من الضروري أن تتدبر تفاصيل إيواء الضيفين وإطعامهما . وكذلك فعلت في جد واهتمام . وجعلت ترقب ما يتمخض عنه اليوم الموعد والساعة الموعودة .

كانت الساعة حوالي الخامسة مساء حين سمع رنين جرس الباب ، وسمع صوت أخي المحرر في الردهة . ومع أنها شاعرة — أو أنها تحسب نفسها كذلك — فان الشعر لم يسئمُ بها في هذا اليوم بحيث ينسبها أن

تتألق في ثيابها . فهي ترتدى ثوبا من أفر مادة وأحدث طراز ، يكاد يشبه ذلك الرداء الإغريقي ( الشيتون ) الذي كان وقتئذ لباسا شائعا بين السيدات ذوات المزاج الفنى الخيالى . وكانت ( إلا ) قد حاكته عند حائكتها بشارغ ( بوند ) فى آخر مرة زارت لندن . دخل الزائر حجرة الاستقبال فنظرت إلى ظهره ، ولكنها لم تر أحدا يدخل سواه .. فأين .. أين روبرت ترو يا إله الحب ؟

قال الرسام بعد تبادل عبارات السلام : « إني لآسف يا مسز مارشمل فسترترو كما تعلمين رجل غريب الأطوار . بعد أن وعد بالحضور عاد يقول إنه لا يستطيع ذلك فثيابه مغبرة ، وقد قطعنا عدة أميال نحمل حقائبنا وهو يؤثر الذهاب توا إلى منزله »

— « أهو . . هو لن يحضر ؟ »

— « لن يحضر . وقد طلب منى أن أعتذر عنه »

— « وأين ترك . . تركته » سألته هذا السؤال وشفقتها السفلى ترتعش

رعشة شديدة أحدثت ثغرة فى كلامها . ولكم تأقت أن تهرب من هذا الرجل الثقيل الظل لتذرف عينيها دموعا .

— « تركته الآن فقط فى الشارع عند البوابة التى هناك »

— « ماذا تقول ؟ أحقا مر بيابى ؟ »

— « نعم . وما إن بلغناه ، وهو باب جميل . . بل هو أجمل قطعة

فنية من حديد الزهر رأيتها فى حياتى . أقول ما إن بلغنا الباب حتى توقفتنا عن المسير ، وتحدثنا هناك قليلا وحيانى وانصرف . . . الواقع أنه الآن



محزون شيئاً ما ولا يريد أن يرى أحداً.

إنه شخص غاية في الطيبة والإخلاص لصديقه ، ولكنه يبدو أحياناً كئيباً قلقاً . وهو يفكر في الأشياء أكثر مما يجب . فشعره كما تعلمين غرامى وعاطفى إلى درجة لا تسيفها بعض الأذواق . وقد هاجمه أحد النقاد هجوما عنيفا في مجلته — في العدد الذى صدر أمس . واطلع عرضاً على نسخة منها في المحطة . . . ولعلك قرأتها ؟ »

— « كلا . . . »

— « أحسن كثيراً . فهو مقال لا يعول عليه . . من هذه المقالات الغرضة التى يقصد بها تملق جمهرة المشتركين من ضيق العقول ، لتروج المجلة على حسابهم ، ولكن ترو تألم لهذا المقال تألماً شديداً وهو يقول إن نَعَمَدَ المغالطة هو ما يحز في نفسه . وأنه يستطيع الثبات إذا هوجم هجوما نزيها . ولكنه لا يستطيعه ازاء حملة من الأكاذيب لا قبل له بدحضها ، أو منعها من الذبوع والانتشار . وهذه هى نقطة الضعف فى ترو . فان انطواءه على نفسه ، جعله يتأثر بهذه الحملات تأثراً ما كان يستشعره لو أنه ممن يضر بون فى صخب الحياة العصرية وحياة الأعمال . ولذا لم يشأ أن يدخل هذا المنزل لأن كل شىء فيه يبدو جديداً ظاهر الثراء . . . لا مؤاخذة »

— « ولكنه لا بد يعلم أن فى هذا المنزل من يبادهه أصدق العواطف وأخلصها . ألم يذكر لك قط أن خطابات وصلته من هذا العنوان ؟ »

— « نعم . نعم . ذكر لى أن جاءت خطابات من جون أيفى ، وهو

فى اعتقاده قريب لك كان يزورك وقتذاك »

— « وهل هو يجب ( أبقى ) هل ذكر لك شيئاً من هذا ؟ »

— « لا أظنه يهتم به كثيراً »

— « ولا بقصائده »

— « ولا بقصائده . . فيما أعلم »

إن روبرت ترو لا يحفل بمنزلها ولا بشعرها ولا بشخصها . وما كادت تسمح لها فرصة للخروج حتى ذهبت إلى غرفة الأطفال . وحاولت أن تنفس عن عواطفها بأن توسع أطفالها تقييلاً من غير داع ، حتى تقززت فجأة حين تذكرت أنهم عطل من الجمال كأبيهم .

وهذا الرسام البليد الغافل لم يلمح من كلام ( إلا ) أن المعنى بالدعوة إنما كان ترو . فحرص على الاستمتاع بالزيارة ما وسعه ذلك . وبد سعيداً في صحبة زوج ( إلا ) كما بادلته هذا ميلاً بميل ؟ فجعل يريه كل شيء في المنطقة المجاورة . دون أن يلاحظ أحدهما سوء حالة ( إلا ) النفسية .

وما كاد يمضي على سفر الرسام يوم أو يومان ، حتى كانت ( إلا ) جالسة وحدها في الطبقة العلوية في الصباح ، تلقي نظرة عجيلى على الصحيفة اللندنية التي وصلت منذ لحظة ، فوقع بصرها على الخبر التالى :

## انتحار شاعر

انتحر روبرت ترو ، أحد شعرائنا العاطفين الناهضين ، الذى عرف فضله وأدبه منذ سنين . وكان انتحاره فى منزله بسولنتزيا مساء الأحد الماضى ، بأن أطلق الرصاص من مسدسه على صدغه الأيمن . ولا نظن القراء

في حاجة إلى من يذكرهم بأن ترو قد استرعى أخيراً أنظار جمهور من الأدباء ،  
يزيد عما تهياً له من قبل ، وذلك بفضل ديوانه الجديد ، الذي يتكون في  
أغلبه من شعر عاطفي ، وعنوانه ( أناشيد لامرأة مجهولة ) .

وقد سبق أن نوهنا بهذا الديوان على هذه الصفحات ، لما فيه من عاطفة  
مشبوبة نادرة ، كانت هدفاً لنقد شديد — إن لم نقل وحشى — من مجلة  
( كذا ) ولعل هذا المقال كان سبباً من أسباب الحادث الحزن ، وإن كنا  
لا نستطيع أن نجزم بشيء من ذلك ، فقد وجدت نسخة من المجلة  
المذكورة على مكتبته . ولوحظ عليه شيء من الوجوم منذ ظهور هذا النقد .  
ثم جاء تقرير المحقق ، وفيه خطاب كتبه ( ترو ) لصديق يقيم في  
جهة قريية :

عزيزي . . . . .

قبل أن تصل هذه السطور إلى يدك سأكون قد تخلصت من كل  
المضايقات التي تثيرها رؤية أى شيء مما حولي ، أو سماعه أو معرفته . ولن أتعبك  
معى بشرح ما دفعنى إلى ما فعلت . وإن كنت أستطيع التأكيد لك بأنه  
دافع منطقي معقول . . . ولو أن الدهر جابى بأم أو أخت أو صديقة مخلصه  
عطوف ، لرأيت في الحياة ما يستحق أن أحيى من أجله . ولطالما حلت  
بمثل هذه الصديقة التي لم أجد اليها سبيلاً كما تعلم . وكانت هذه المرأة المراوغة  
التي لم أهتد اليها ، هي ملهمة ديوانى الأخير .. إنها المرأة الخيالية وحدها ..  
أما ما تردد في بعض الأوساط ، فلا أساس له من الصحة ، ولا توجد أية  
امرأة حقيقية وراء عنوان الديوان .. ولقد ظلت حتى النهاية لا أهتدى اليها

ولا ألقاها ولا أ كسبها .. وأظن من الخير أن أقرر ذلك حتى لا تؤخذ أية امرأة حقيقية بتهمة حملي على الانتحار ، بقسوتها ، أو تمنعها . أخبر السيدة صاحبة المنزل أسفى لما سببته لها من نكد .. وسينسى مقامى بالحجرتين سريعاً ، ولى رصيد باسمى فى المصرف يفى بتسديد كل النفقات ؟

ر . ترو

جلست (إلا) برهة من الزمن مذهولة من هول الخطب . ثم هرعت إلى الحجرة المجاورة ، واستلقت على وجهها فى السرير . لقد تطايرت نفسها شعاعاً من فرط حزنها وذهولها . وظلت حزينية محمومة ما يربو على الساعة . وكانت الكلمات تنبعث قطعاً مبتورة من شفثيها المرتعشتين .. بين الحين والحين (آه.. لو أنه علم بأمرى .. أنا .. أنا .. آه .. لو أنى قابلته مرة واحدة .. مرة واحدة .. ووضعت يدي على جبهته الحترى .. وقبلته .. وجعلته يعلم كم أحبه .. كم كنت أود أن أحتمل العار ووزارةية الناس فى سبيله ، وأن أحيا له وأموت من أجله ، إذن لأتخذت حياته الغالية .. لكن لم .. لم يتح لى ذلك .. إن الدهر حسود حقود ، وهذه السعادة لم تكتب له ولا لى .. «

قضى الأمر وضاعت الفرصة واستحال اللقاء . ومع ذلك فقد ظلت ساعة اللقاء ماثلة فى خاطر (إلا) حتى فى هذه اللحظة ، ( تلك الساعة التى ربما كانت تتاح ، ولكنها لم تتح ، والتى كان يهفو اليها قلب الرجل ، ويتشوق اليها قلب المرأة .. والتى تُصبح الحياة بعدها قفراً يباباً ) .

كتبت إلى صاحبة المنزل في سولنتزيا خطاباً بضمير الغائب ، حاولت  
بما وسعها أن يكون أسلوبه هادئاً لا ينم عما يجيش في صدرها ، وطوته  
على حوالة مجنيه ، وذكرت في الخطاب إلى مسز هوپر أنها قرأت في  
الصحف الوصف المفجع لوفاة الشاعر . ولما كانت — كما تعلم مسز هوپر —  
قد أعجبت كثيراً بمسز ترو في أثناء مقامها في ( كوبرج هوس ) ، فإنها  
تكون شاكرة لمسز هوپر أبلغ الشكر ، إذا استطاعت أن ترسل لها قدراً  
يسيراً من شعراته ، قبل أن يوصد عليه التابوت . لتحفظها ذكرى للشاعر .  
كما ترسل الصورة التي كانت في الإطار .

ووصل بعودة البريد خطاب يحوى ما طلب . وبكت ( إلا ) على  
الصورة وحفظتها في درجها الخاص ، وربطت خصلة الشعر بشرط أبيض  
ووضعتها في صدرها ، وكانت تخرجها بين الفينة والفينة ، لتقبلها في أحد  
أركان المنزل بعيداً عن الأنظار .

— « ماذا في الأمر ؟ » كذلك قال لها زوجها وقد رآها تفعل ذلك  
مرة حينما كان يطالع جريدة : « أتبيكين على شيء ؟ خصلة من الشعر ؟ لمن  
تكون هذه الخصلة ؟ » .

فغممت قائلة : « لقد مات »

— « من ؟ » .

— « لا أريد أن أخبرك الآن إلا إذا . كنت مصمماً » كذلك كان

ردها في نبرة تعص بالبكاء .

— « إذن لا داعي »

— « أضايقك أنى لم أجب ؟ .. سأخبرك يوماً ما »

— « هذا لا يضايقنى أبداً بطبيعة الحال »

وانصرف وهو يصفر بعض مقطوعات ليس بينها نعم متصل . ولما عاد إلى مصنعه بالمدينة عاوده التفكير في هذا الأمر .

فقد ترمى إلى علمه هو أيضاً أن حادث ارتحار قد وقع أخيراً فى المنزل الذى كانوا يقطنونه فى سولتيزيا . ولما كان قد رأى ديوانه فى يد زوجته منذ أمد وجيز ، وسمع تفتاً من حديث صاحبة المنزل عنه حينما كانوا يسكنون لديها ، فقد قال فى نفسه فجأة : « لماذا ؟ إنه هو لا ريب . يا للشيطان ! كيف استطاعت أن تعرفه .. هؤلاء النساء .. ما أخبهن ! » . ثم طرد هذا الخاطر فى هدوء وانسجم فى مشاغله اليومية . وفى تلك الأثناء كانت ( إلا ) قد استقرت على رأى . فقد جددت مسز هوپرفى خطابها اليوم الذى يذفن فيه ( ترو ) . فامر الصباح والظهيرة حتى استولت على المرأة الحساسة رغبة جامحة فى أن تعرف مكان دفنه ، دون أن تحفل الآن بما قد يظنه زوجها أو سواه فى مسلكها الشاذ . وكتبت لمارشمل كلمة قصيرة تنبئه فيها بأنها دعيت لقضاء بعد الظهر والمساء خارج المنزل ، وأنها ستعود فى صباح اليوم التالى . وتركت هذه الكلمة على مكتبه ، واحاطت الخدم بنفس هذه المعلومات ، وانصرفت من المنزل سعياً على القدم .

ولما وصل مستر مارشمل إلى المنزل بعيد الظهر ، بدا القلق على الخدم ،

واتمتحت به المربية جانبا ، وأسرت اليه أن حزن سيدتها في الأيام القليلة الماضية ، قد بلغ من الشدة مبلغا يخشى معه أن تكون قد خرجت لتفرق نفسها . ففكر مارشمل في الأمر . ولكن لم يدر بخلده على كل حال أنها فعلت ذلك . ودون أن ينس بكلمة عن وجهته ، برح هو الآخر بمنزله ، بعد أن أخبر الخدم ألا يتوقعوا حضوره هذا المساء . . واستقل السيارة إلى محطة سكة الحديد ، وابتاع تذكرة إلى سولنتزيا .

كان الظلام قد أرخى سدوله حين بلغ المكان ، مع أنه ذهب بالقطار السريع . وكان يعلم أن زوجته إذا كانت سبقتة إلى هذه المدينة ، فهي قد سافرت في قطار أبطأ من قطاره ، لا يصل قبله بوقت طويل . لقد انتهى موسم سولنتزيا . . وهذا هو شارع البحر مظلم ، والعربات قليلة رخيصة . . وهذا مارشمل يسأل عن الطريق إلى حي المقابر ، وسرعان ما يصل . وكان الباب موصداً ، بيد أن الحارس سمح له بالدخول ، بعد أن أخبره أن المكان ليس به أحد . ومع أن الوقت لم يكن متأخراً ، فان ظلام الخريف المتكاثف ، لم يجعل من السهل على مارشمل أن يتبع الطريق الملتوى ، الذي يؤدي إلى مدافن موتى ذلك اليوم . فمشى على العشب ، وجعل وهو يتعثر في الأوتاد ، يتحنن ويتأمل ، يحاول أن يستبين شبحاً على صفحة السماء . فلم ير شيئاً . . وما إن انحدر إلى بقعة من الأرض وطئتها الأقدام ، حتى رأى شبحاً قابعا في جوار قبر حديث البناء . . سمعته فنهضت على قدميها . — ( إلا ) — ما هذه الحماقة ؟ كيف تفرين من المنزل على هذا النحو ؟ لم أسمع بشيء كهذا مطلقاً ، أنا لا أحسد هذا الرجل المسكين . .

ولكن من المزرى أن تجنى هكذا بعاشق مات ، وأنت امرأة متزوجة لها  
• ثلاثة بنين ورابع في الطريق . أتعلمين أن الباب قد أوصد من دونك ،  
وكان من الجائز أن تجبسى هنا طول الليل ؟ » .

فلم تجر جوابا .

— « أرجو ألا يكون الأمر بينكما قد ذهب بعيداً . لمصلحتك  
أنت » .

— « أنا لا أقبل هذه الإهانة يا وليم » .

— « على أى حال لن أسمح بشيء من هذا بعد اليوم — أسمعين؟ » .

قالت : « ليكن » .

وتأبط ذراعها وخرجا من حى المقابر . ولم تكن العودة إلى مدينتهما  
ممكنة هذا المساء . ولم يشأ مارشمل أن يراها أحد يعرفها في هذه الحالة  
المؤسفة ، فذهب بها إلى فندق صغير بأس في جوار المحطة . ومنه استقلا  
قطار الصباح الباكر . وفي أثناء الرحلة لم يكدهم يجرى بينهما حديث . فقد  
كان كلاهما يحس أنه في أحد هذه المواقف الكئيبة ، التي تعرض في  
الحياة الزوجية ، ولا يجدى فيها أى كلام . وبلغا باب المنزل في الظهيرة .

ومضت أشهر دون أن يجرؤ أحد الزوجين على أن يشير إلى هذا  
الحادث . وكانت ( إلا ) تبدو على الدوام حزينة لا تحفل بالحياة ، مضناة  
سقيمة . والآن يقترب الموعد الذى يتحتم عليها فيه أن تقاسى الآلام الوضع  
مرة رابعة . وليس هذا ، فيما يبدو ، مما يحسن حالتها المعنوية .



فقلت لزوجها يوماً : « لا أظن أنى سأسلم هذه المرة » .  
— « هذا تشاؤم أطلاق . لم لاتسلمين كما سلمت فى المرات السابقة؟ » .  
فهزت رأسها قائلة : « أنا موقنة أنى سأموت . وكان هذا يسعدنى  
لولا نبلى وفرانك وتبى » .  
— « وأنا ؟ » .

فتمتصت فى ابتسامة حزينة : « سرعان ما تجد من يخلفنى .. ولك  
كامل الحق فى هذا من غير شك » .

— « (إلا) ألا تزالين تفكرين فى .. صديقك الشاعر؟ »  
لم تعترف بالتهمة ولم تنكرها، بل أعادت قولها : « لن أنجو من الوضع  
هذه المرة .. إن هاتفاً يهتف بى » .

وكانت هذه الأفكار بداءة سيئة كما هى العادة ، فما مضت ستة  
أسابيع ، وحل شهر مايو، حتى كانت (إلا) مستلقية فى غرفتها .. لا نبض  
ولا دم .. ولا تكاد تقوى على أن تتبع نفساً كليلاً بنفس آخر كليل .  
أما الطفل الذى من أجل حياته — وما أهونها — تفارق أمه الحياة ،  
فكان سميناً صحيح البدن . وقبل وفاتها مباشرة قالت للمرشمل فى دعة :  
« أريد أن أعترف لك بكل ظروف هذا . الذى تعرف .. حين كنا  
فى سولنتزيا . لا أدرى ماذا تملكنى ، ولا كيف استطعت أن أنساك على  
هذا النحو وأنت زوجى . ولكنى كنت منقبضة النفس ، فظننتك قاسياً ،  
وخيل إلى أنك أهملتنى ، وإن ذكائك لا يعدل ذكائى .. بينما هو يفوقنى

بمراحل . لعل كنت في حاجة إلى من يعرف قدرى ، أكثر من حاجتى إلى حبيب آخر » .

لم تستطع أن تتجاوز هذا الحد لشدة إعيائها . ولم تمض ساعات قليلة حتى اعترتها نوبة مفاجئة ، وحم القضاء ، دون أن تزيد شيئاً على ما قالته في أمر الشاعر . والحق أن وليم مارشمل كان ، كعظم الأزواج الذين قضوا في الزوجية عادة سنين ، لا تزججه أوهام الغيرة . فلم يبد رغبة ما في انتزاع اعتراف ، يتصل برجل طواه الردى ، ومضى به عن الأحياء ، فلم يعد يستطيع أن ينغص عليه العيش مرة أخرى .

ولكن بعد مرور عامين على وفاتها ، كان زوجها يجمع أوراقه القديمة ، فقد شاء إتلافها قبل أن يبنى بزوجة جديدة . فعثر على خصلة من الشعر في غلاف ، ومعها صورة الشاعر الراحل ، وعلى ظهرها تاريخ بخط زوجته المتوفاة ، هو تاريخ مقامهم في سولنتزيا .

وجعل مارشمل يطيل النظر والتأمل في الشعر والصورة ، لأن خاطرأ مر بخلده . . فبادر بإحضار الطفل الصغير الذى سبب وفاة أمه ، وهو الآن طفل كثير الضجة ، وأجلسه على ركبتيه ، وأدنى خصلة الشعر من رأسه . ووضع صورة الشاعر رأسية على المائدة خلف الطفل ، كي يستطيع أن يقارن ملامح الوجهين عن كسب .

وبمخدعة من خدع الطبيعة التى نعرفها ونجهل كنهها ، وجد فى الطفل ملامح شديدة الشبه بالرجل الذى لم تره أمه قط . فهذه النظرات الحاملة

التي يمتاز بها محيا الشاعر ، بادية — كما حسب — في محيا الطفل . ولون  
الشعر كلون الشعر .

— « حقت على اللعنة لو لم أفهم ذلك .. لقد كانت تخدعني وتعبث  
مع الشاعر في النزول .. لننظر إلى التواريخ .. الأسبوع الثاني من أغسطس  
والأسبوع الثالث من مايو .. نعم .. نعم .. إذهب غنى أيها الطفل الصغير ..  
جلست منى » .

## الإبرن بعترض

لناظر من الخلف كان شعرها الأسمر يشير الدهشة ، ويشير إلى سر  
مخبر . فتحت قبة من القراء الأسود ، تزين أعلاها مجموعة من الريش  
الأسود ، كانت لبتها معقوفة ثم ملتوية ثم مستديرة على نفسها ، أشبه بجداول  
السلال . فكانت مثالا نادراً للتفنن المبتدع ، وإن لم يحل من شيء تجفوه  
المدنية . ويستطيع المرء أن يفهم أن جداول كهذه قد صنعت لتبقى عاماً أو  
شهاً . أما أن تدمر في موعد النوم من كل يوم ، فهذا تضيق مستهتر  
لصنعة ماهرة .

وكانت هي التي تجده وحدها . . هذه المسكينة ، فليس لها وصيفة .  
وكان إعداد الشعر على هذا النحو هو الكفاءة الوحيدة التي تستطيع أن  
ترهبها . . وهذا سر آلامها التي لا تُحد .

كانت شابة عليلة وإن كانت علتها لاتعدها تماماً ، جالسة على كرسى  
ذى عجل ، قد سحب بها على منفسح من أرض خضراء ذات سياج . حتى  
استقر في الصف الأمامى قريباً من مكان العازفين ، الذين كانوا يقدمون  
ألحاناً موسيقية في عصر يوم دافىء من شهر يونيه . وكان ذلك في منزلة  
صغير في إحدى ضواحي لندن . وقد أقامت هذا الحفل جمعية محلية قصد  
التبرع بإيراده لمشروع خيرى .

والمدينة الكبرى — لندن — عالم يحوى عوالم كثيرة . ومع أنه لم  
يسمع أحد خارج الحى المجاور للمشروع الخيرى أو الفرقة الموسيقية أو الحقيقة ،

فقد غص المسكان برائديه المشوقين ، الذين أحاطوا علماً بكل هذا .  
وبينا الموسيقى تصدح وقعت أنظار المستمعين على السيدة ذات الكرسي ،  
التي كان شعرها الأسمر ، ومكانها البارز يفران بالتأمل والاستطلاع . ولم  
يكن من اليسير اجتلاء طلعتها ، غير أن جدائل شعرها المتسقة التي ألصقا  
إليها ، وأذنها وعنقها البيضاوين ، وقوساً من وجهها ليس مجعداً ولا شاحباً ،  
كان كل أولئك بشائر تعزى بالأمل في شهود جمال رائع من أمام . وكثيراً  
ما يخيب مثل هذا الأمل ، إذا ما كشفت الحقيقة سافرة . وكان هذا هو الحال  
في هذه المرة . فحينما أدارت السيدة رأسها . رأى الناس وجهاً ليس بالجليل ، كما  
حسبوا وتمنوا . . دون أن يعرفوا لهذا التمني سراً .

فمن جهة كانت السيدة أمن بما حسبوها ( والشكوى من السن  
شائعة ويا للأسف ) ومع ذلك فقد كان وجهها جذاباً لازيب ، ولا يبدو فيه  
أثر علة . وكانت تفاصيل ملامحها الدقيقة تتكشف كلما أدارت وجهها  
لتحدث صبيها في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره يقف إلى جوارها ،  
وتنبيء قبعته وسترته عن انتسابه لإحدى المدارس الخاصة المعروفة . وقد  
سمعه القريبون منه يناديها ( أمه ) .

ولما انتهت الحفلة وأخذ المستمعون في الانصراف اختار كثير منهم أن  
يسلك في خروجه طريقاً قريباً منها . وأدار جلهم رأسه إليها ليحظى عن  
كتب بنظرة كاملة للمرأة الشائقة ، التي ثبتت في كرسيها حتى يخلو الطريق ،  
ويُستطاع سحب الكرسي إلى الخارج دون أن يعوقه عائق . وكأنما كانت  
تتوقع نظراتهم ، ولا تمنع في إشباع فضولهم ، فكانت تقابل أعين كثير

من مشاهدتها برفع عينيها ، فبانت هاتان دائرتين سمراوين وادعيتين  
ودودين ، تكمن في نظريتهما أنه خافته .

سحب الكرسي إلى خارج الحديقة ، ثم على الطوار . . حتى غابت  
عن الأنظار ، والتلميذ يمشى إلى جوارها . وقيل لبعض المستفسرين عنها  
من شهدوها وهي تمضي ، إنها الزوجة الثانية لأسقف أبرشية مجاورة .. وإنها  
عرجاء . وكان يعتقد عموماً أنها امرأة لها قصة ، قصة بريئة ، ولكنها قصة  
من نوع أو من آخر .

وفي أثناء حديثهما وهما عائدتان إلى المنزل ، قال لها الصبي وهو يسير إلى  
جانبها ، إنه يرجو ألا يكون أبوه قد احتاج اليهما في هذه المدة ، فأجابت  
« إنه ( كانوا ) مستريحاً غاية الراحة في الساعات الأخيرة ، فن المؤكد أنه  
لم يفتقدنا » فقال التلميذ متعجباً في دقة وإصرار بلغنا مبلغ الخشونة ( كان )  
يا أمي العريزة لا ( كانوا ) . لاشك أنك تعرفين ذلك بعد هذا الزمن  
الطويل . فسرعان ما صححت خطأها دون أن تعترض على موقفه منها ،  
أو تحاول التآمر — وقد كان ميسوراً — فتأمره بأن يمسح فمه بما علق به من  
خفات في أثناء محاولته الماكرة ، أن يأكل قطعة من الحاوي دون إخراجها من  
الكيس الذي كانت محفوظه فيه . وبعد ذلك مضت السيدة المليحة والصبي  
قدما في مسكون .

ويرجع هذا الخطأ النحوي إلى شيء يمت إلى نشأتها بسبب . فاشتمل  
عليها حلم من أحلام اليقظة ، تدل الظواهر كلها على أنه حلم ذو طابع حزين  
ولعلها كانت تتساءل : ترى أحسنت أم أساءت بتشكيل حياتها على هذه

الصورة ، حتى صارت إلى ما صارت إليه ؟ .

ففي زاوية نائية في شمال وسكس على مسافة أربعين ميلا من لندن ، قرب المدينة الريفية المزدهرة أولد بركهام ، كانت قرية جميلة ، فيها كنيستها وأسقفها ، قرية تعرفها هي جيدا وإن كان ابنها لم يرها قط ، هي قريتها ومسقط رأسها ( جايميد ) وقد حدث أول حادث ذي علاقة بمركزها الراهن في هذه القرية ، حينما كانت لا تزال فتاة لم تتجاوز التاسعة عشرة .

كم كانت تذكره جيدا ، ذلك الفصل الأول من مهزلتها المؤسية . . . تذكر موت الزوجة الأولى لزوجها الأسقف الجليل . لقد حدث هذا في ليلة من ليالي الربيع . وكانت هي — من حلت محلها منذ سنين عدة — تستغل حينذاك خادما لخدمة الاستقبال في منزل الأسقف . وبعد انجاز كل ما يمكن انجازه وإعلان وفاة السيدة ، ذهبت الخادم في العسق لتزور أوبوها ، وكانا يقمان في نفس القرية ، لتنهى إليهما النبأ الأليم . وبينما هي تفتح الباب الأبيض المتأرجح ، وتتنظر صوب الأشجار القائمة إلى الغرب ، حاجة ذلك الضوء الخافت الذي ينبعث من سماء المساء . إذ تبينت دون كبير دهشة شبح رجل واقف عند السور . فقالت في دهشة خبيثة مفتعلة ، جريا على مألوف العادة : « أوه . سام . لقد خفت منك »

وسام هذا بستانى شاب من معارفها . أخبرته بتفاصيل الحادث الأخير ، ووقف هذان الشبان صامتين غارقين في هذا التفكير الفلسفي السامى الهادى ، الذى يغشى الفلاسفة حين تحدث مأساه في مكان قريب ؛ أصابت بعض من يمتون إليهم بصلة ، ولكنها لم تصب الفلاسفة أنفسهم .

تم سألها سام : « وهل ستظلين في دار الأسقف كما كنت تماما ؟ »  
لم يكذب دور لها هذا الموضوع في خاطر فقالت : « نعم على ما أظن .  
يخيل إليّ أن كل شيء سيظل على ما هو عليه »  
سار معها نحو بيت أمها ، وسرعان ما التفت ذراعه بخصرها في خفة ،  
فكبتها في رقة . ولكنه أعاد الكرة ، فلم تفعل شيئا .  
— « إنك لا تعرفين يا عزيزتي إن كنت ستبقين في منزل الأسقف  
أم لا . وربما تحتاجين إلى بيت . . وسوف أستطيع أنا أن أقدم لك بيتا  
في يوم من الأيام . وإن كنت لا أستطيع ذلك في هذه اللحظة »  
— « ما هذا يا سام . أهكذا تتسرع ؟ أنا لم أفه يوما من الأيام بكلمة  
تم عن ميلي إليك ! وكل ما حصل كان من صنعك . فأنت الذي تطاردني »  
— « لنفرض . ماذا يمنع أن أحاول معك كما يحاول الآخرون ؟ »  
فضاحت وقد وضعت يدها على فمه قائلة : « كلا يا سام . يجب أن تكون  
أكثر جدأ في ليلة كهذه »

وودعته دون أن تسمح له بتقبيلها أو الدخول معها .  
وكان الأسقف الأيّم في سن الأربعين تقريبا ، من أسرة عريقة ،  
ولم ينجب أطفالا ، وكان من بادىء الأمر يميل في حياته إلى العزلة .  
يحمّله على ذلك أن ليس في القرية مستوطنون من ملاك الأراضى . ثم  
جاءت وفاة زوجته فزادته إمعانا في الإزواء عن الناس ، فصاروا لا يرونه  
إلا لماما . وقل بمضى الزمن تتبعه لما يسمونه حركات الإصلاح في العالم  
الخارجى . وظلت نفقات منزله لا يتناولها تغيير حتى بعد انقضاء أشهر



على وفاة زوجته . فلهذه طبّاخة ، وخدام للمنزل ، وخدام لغرفة الاستقبال ، ورجل لقضاء المهام خارج المنزل .

وكان هؤلاء يؤدون أعمالهم أو يهتمون بها، حسبما تشاء طبائعهم، دون أن يدري الأسقف عنهم شيئاً . على أنه ما لبث أن تراءى له أن خدمه لا عمل لهم في أسرة صغيرة ، تتكون من فرد واحد ، وتأثراً بهذه الفكرة قرر أن يخفض عدد الخدم . ولكن سوفى سبقته إلى ما أراد . فذكرت له ذات مساء أنها تريد أن تعتزل العمل . فقال لها « ولماذا ؟ »

— « لأن سام هو يزون طلب منى الزواج يا سيدى »

— « وهل تريدان الزواج ؟ »

— « لست أتلهف عليه ، ولكنه يمنحني بيتاً . وقد سمعنا أن إحدانا

لا بد أن تعتزل . »

و بعد يوم أو يومين قالت له : « أنا الآن لا أريد أن أخرج يا سيدى ،

إذا لم يكن لديك مانع ، فقد تشاجرت مع سام »

فنظر إليها . ولم يكن من قبل قد أعارها التفانا ، وإن كان كثيراً ما

أحس بما يشيعه وجودها في الحجرة من غبطة واطمئنان . كم هي كالتقطيطة

في لينها ودعتها !!! إنها الخادم الوحيدة التي لها به صلة مباشرة مستمرة .

فماذا عساه أن يفعل إذا خرجت سوفى ؟

لم تخرج سوفى ، بل خرجت خادم سواها . وعادت الأمور إلى

سابق هدوئها .

: فلما مرض مستر (توايكوت) الأسقف كانت سوفى تحضر له الطعام .

وفي ذات يوم، ما كادت تخرج من العرفة، حتى سمع صوت عال على الدرج،  
فقد انزلت سوفى وفي يدها الصينية، والتوت قدمها، ولم تستطع الوقوف.  
فاستدعى جراح القرية، وتقدمت صحة الأسقف، ولكن ظلت سوفى طويلا  
عاجزة عن الوقوف. وأمرت ألا تسرف في مشى أو عمل يستأزم وقوفها على  
قدميها طويلا. وما كادت صحتها تتحسن شيئا ما، حتى خاطبت الأسقف  
على حدة، وذكرت له أن واجبها يقتضيها أن تبارح منزله، ما دام المشى  
والانتقال قد حرما عليها، وهى لا تستطيعهما فى الواقع. وأن فى وسعها أن  
تشتغل بحياكة الملابس مع خالتها.

فاهترت مشاعر الأسقف أيما اهتزاز لما أصاب الفتاة من أجله، وقال  
مندفعا: «كلا يا سوفى، عرجاء أو غير عرجاء، لن أدعك تخرجين. يجب  
ألا تتركينى بعد اليوم». ثم اقترب منها. وهنا لا تستطيع أن تذكر بالضبط  
إلا أنها أحست بشفتيه على خدها. ثم طلب إليها أن تزوجه. ولم تكن  
سوفى تحبه تمام الحب، غير أنها كانت توقره إلى درجة تكاد تبلغ التقديس.  
وحتى لو أنها شاءت التلمص منه، فأنى لها الجرأة على رفض شخصية لها، فى  
نظرها، هذا المركز الجليل السامى؟ لذا وافقت على أن تكون له زوجا.

وهكذا حدث فى صباح صحو، حينما كانت الكنيسة مفتوحة لتجديد  
الهواء كالمعتاد، والطيور المفردة تحفق بأجنحتها فى داخل الكنيسة، وتقف  
على عارضات السقف، أن جرت مراسم الزواج فى المقصورة الخاصة بذلك..  
دون أن يعلم نبأها إنسان. دخل الأسقف من أحد الأبواب، ودهنه قسيس

كنيسة مجاورة . ودخلت سوفى من الباب الآخر، يتبعها شخصان لا مندوحة من وجودها . وبعد برهة قصيرة، خرج للعالم زوجان جديدان .

كان مستر توياي كوت يعلم حق العلم أنه قضى على مركزه الاجتماعى بهذا الزواج ، وإن كانت أخلاق سوفى لا تشوبها شائبة . فأعد للموقف عدته ، واتفق مع أسقف كنيسة فى جنوب لندن، على أن يحل كل منهما محل الآخر . وانتقل الزوجان إلى منزلهما الجديد فى أقرب وقت مستطاع ، تاركين منزلهما الرينى الجميل ، بأشجاره وشجيراته وأرضه ، إلى منزل ضيق مغبر ، فى شارع طويل مستقيم ، وقد استبدلا بترانيم أجراسهما الفاخرة قرقعة الجرس الواحد ، وهى شر ما تبتلى به أذن إنسان . . وكان كل ذلك من أجلها . ومهما يكن من أمر هذا الانتقال فقد أبعدهما عن كل من يعرف مركزها السابق ، وجعلهما أبعد عن رقابة الناس مما لو كانا فى ابرشية ريفية .

كانت سوفى — المرأة — شريكاً متمعاً جداً إلى أقصى حد يتمناه رجل . أما سوفى — السيدة — فلم تكن تخلو من مواطن ضعف . وقد أظهرت كياسة وحنفاً طبيعياً فيما يتعلق بالشئون المنزلية البسيطة ، المتصلة بالأشياء والأساليب . ولكنها كانت أقل بصراً واستعداداً فيما يدعى الثقافة . فقد مضى على زواجها أكثر من أربعة عشر عاماً ، بذل زوجها فى أثنائها جهداً كبيراً لتعليمها . . ومع ذلك فهى لا تزال تخلط بين استعمال كلمتي ( كان ) و ( كانوا ) الشيء الذى لا يبعث معارفها القليلين على احترامها . غير أن ما يقض مضجعها أكثر من سواه ، فى هذا الضدد ، هو أن ابنها الوحيد ، الذى لم يدخر ولن يدخر مال فى سبيل تعليمه ، قد كبر الآن ، وصار يدرك نواحي النقص

في أمه . . والأدهى من هذا ، أن هذه النواحي صارت تهتاجه وتوغر صدره .

وعلى هذا المنوال عاشت في المدينة ، تقضى ساعات تجدل شعرها الجميل .. حتى تضائل لون خدها التفاحي ، وصار وردياً شاحباً أشد الشحوب . أما قدمها ، فلم تستعد بعد الحادث قوتها ، واضطرت في أغلب الأحيان أن تتفادى السير ، وبدأ زوجها يحب لندن لما فيها من حرية ، وبعد عن رقابة الناس . غير أنه كان يكبر سوفى بعشرين سنة ، وقد أصيب أخيراً بمرض خطير . ومع ذلك فهو يشعر ذلك اليوم بأن صحته لا بأس بها ، ويسمح لها باصطحاب ابنها راندولف لسماع الموسيقى .

— ٢ —

نلمحها بعد ذلك مرة أخرى في مسوح الحداد ، فقد تزلزلت . إذ لم يبرأ مستر تويكوت من مرضه قط . وهو الآن ثاو في مقبرة مزدحمة إلى الجنوب من المدينة الكبرى ، ولونهض كل موتاها وبعثوا إلى الحياة . لما عرفه منهم أحد ، ولا تذكره أحد . وقد شيعه ابنه إلى قبره ، كما يقضى بذلك واجبه ، ثم عاد إلى المدرسة حيث هو الآن . وعملت سوفى خلال هذه الأحداث كما تعامل طفله . . وقد كانت طفلة في طبيعتها ، وإن لم تك كذلك في سنها . فلم يترك لها حرية التصرف في شيء من تراث زوجها ، سوى معاشها الشخصي المتواضع . وكان زوجها يخشى أن يستغل أحد قلة خبرتها ، فأودع عند الأوصياء كل ما استطاع . وخصص جزءاً من ماله لإتمام تعليم ابنه في المدرسة الخاصة ، ثم في جامعة أكسفورد ، ثم في الدراسة الكهنوتية . فلم

يعد لديها ما يشغلها في حقيقة الأمر، سوى أن تأكل وتشرب، وأن تخلق من الكسل عملاً، وتمضى في جدل شعرها الأسود وإدارته، وكل ههما أن نستبقى المنزل مفتوحاً لابنها كلما جاءها في عطلة مدرسية .

ولما كان زوجها يقدر أنه سيموت قبلها بزمن طويل، فقد اشترى لها إبان حياته منزلاً صغيراً في الضاحية لا يكاد يتصل بما حوله، ويقع في نفس الطريق الطويل المستقيم الذي تطل عليه الكنيسة ومنزل الأسقف، على أن يكون لها هذا المنزل ما طابت لها الإقامة فيه . وهي تقيم الآن به، وتأمل رقعة من الأرض الخضراء أمامها، وتفرج من خلال السور على حركة النقل المستمرة، أو تطل من النافذة في الطبقة الأولى، معتمدة على سجفها، مرسله نظراتها بعيداً هنا وهناك، بين الأشجار القائمة، والهواء المكفهر . وواجهات المنازل السنجابية، حيث كانت تتجاوب الأصوات المألوفة في شارع رئيسي من شوارع الضواحي .

وكان ابنها بمعلوماته المدرسية الارستقراطية، وأجروميته، وجفائه وتبرمه، يفقد، بطريقة ما، عواطف الطفولة التي تتسع حتى تشمل الشمس والقمرة . . . تلك العواطف التي ولدت فيه كما ولدت في سائر الأطفال، وكان يهتز لها قلب أمه، فقد كانت لا تزال طفلة في طبيعتها . ضيق الصبي . مدى هذه العواطف وقصرها على بضعة آلاف من الأثرياء وذوى الألقاب، ليسوا إلا صورة مزورة مزيفة لآلاف الملايين غيرهم، الذين لا يهتمون هذا الصبي في شيء . فظلت الشقة التي تفصله عن أمه تزيد اتساعاً يوماً بعد يوم . ولما كانت سوف تعيش بين أهل الضاحية من صغار التجار والكتبة .

وصارت الآن تقضى كل وقتها مع خادمتين في منزلها، كان من غير المستغرب أنه ما كاد يموت زوجها، حتى تطايرت أذواقها القليلة غير الأصيله، التي أخذتها عنه . وأصبحت في نظر ابنها أما قضى عليه سوء حظه ، أن يندى جبينه لأخطائها وضمة منشأها .

فهو حتى الآن لم تكتمل رجولته — إن كانت ستكتمل يوماً ما — ليدرك مدى إضالة عيوب أمه ، بما تقياس إلى حبها الحنون المتلطف الذي أضعف قلبها ، واحتبس فيه، إلى أن يأتي وقت يكون الابن فيه أكثر استعداداً لأن يقبله، هو أو سواه من الناس أو الأشياء . ولو أنه كان يعيش معها في المنزل الخطى بكل هذا الذخر العاطفي . ولكنه زاهد فيه أشد الزهد ، فظل الحب مدخراً وقد غدت حياتها كثيبة لا تحتمل ، فهي لا تستطيع السير أو النزهة ، ولا تحب الخروج في عربه ، بل إنها في الواقع لا تحب السفر إلى أى مكان . ومر قرابة عامين ، لم يجدد فيهما جديد . وظلت هي تظل على طريق الضاحية المنبسط أمامها ، مفكرة في قريتها ومسقط رأسها ، فهي تمنح للرجوع إليه « كم يكون ممتعاً . . حتى العمل في الحقول » .

ولحمانها من الرياضة كانت تارق في غالب الأحيان . وكانت تستيقظ في الليل أو في الصباح الباكر لتلقى نظرة على الشارع الذي لا يزال خاوياً ، والذي تقف به المصاييح كأنها حراس في انتظار مرور موكب . وكان شيء يشبه الموكب يمر كل يوم حوالى الساعة الواحدة ، فتمر المركبات الريفية باكداس الخضروات في طريقها إلى سوق ( كوفنت جاردن ) .

وكانت كثيرا ما ترى هذه المركبات تزحف في هذه الساعة الهادئة في غبشة الضوء ، مركبة في إثر مركبة ، حاملة أكداسا خضراء من الكرمب ، تميل للسقوط ولكنها لا تسقط أبدا ، وأكداسا من السلال كأنها الجدران ، تحوي مقادير كبيرة من الفاصوليا والبسلة . وأكواماً من اللفت في شكل الأهرام وبياض الثلج ، وهو ادج تختلط فيها منتجات شتى ، تسير الهوينا وراء خيل مسنة تبدو دائماً صابرة حائرة ، تتساعل بين كل سعة جافة وأخرى . ترى لماذا كان علينا دائماً أن نشغل في هذه الساعة الساكنة ، بينما يتاح لسائر الأحياء أن تستريح ؟ وكان مما يسرى عنها إذا حالت كآبتها وعصبيتها بينها وبين النوم ، أن تتدثر في معطفها ، وتشهد التمتع الخضروات وابتسامها للحياة ، حين تواجه المصباح . وتنظر إلى الحيوانات تتصبب عرقا ، وتسير لامة بعد ما قطعتة من أميال في السفر .

وكان يشوق سوفى ويفتنها ، أن ترى أناسا وعربات وعليهم سمات الريف ، ماضين في جو المدينة ، باعثن فيه حياة تخالف تماما حياة من يكدحون في نفس ذلك الطريق في رابعة النهار . وذات صباح كان رجل يرافق عربة محملة بالبطاطس ، ينظر عن كئيب إلى واجهات المنازل في أثناء سيره . فاعترت سوفى رعدة عاطفية ، فقد أحست أن هذا شكل مأوف لها . فأعدت إليه النظر . ولما كانت مركبته من طراز قديم ، ومقدمها أصفر ، كان من السهل تمييزها . وفي الليلة الثالثة رأتها سوفى مرة أخرى . وكان الرجل الذى يسير إلى جانبها هو من تخيلته . هو سام هو بزون ، الذى كان بستانيا في جايميد ، والذى كاد أن يتزوجها في أحد الأوقات

وكانت تفكر فيه بين الفينة والفينة وتتساءل : ترى ألم تكن الحياة معه في كوخ ، خيراً من الحياة التي رضيت أن تميهاها ؟ لم تكن قد هامت به فيما مضى ، ولكن حالتها الراهنة الكثيرة شاققتها إلى تجديد عهده ، شوقاً حنوناً رقيقاً لا سبيل إلى المبالغة فيه ، فأوتت إلى سريرها تفكر .. متى يعود تجار الخضار الذين يقصدون المدينة في الساعة الواحدة أو الثانية صباحاً ، واستطاعت أن تذكر في شيء من الغموض ، أنها ترى مركباتهم تعود خاوية في وقت ما قبل الظهر ، ولا تكاد تستينها وسط حركة المرور العادية .

كنا لا نزال في إبريل . ولكنها في هذا الصباح فتحت النافذة بعد تناول طعام الإفطار وجلست ترقب . وكانت الشمس الخافتة تسطع بأكملها فوقها . وقد تظاهرت أنها تحيط شيئاً غير أن عينها لم تسه عن الطريق . وبين الساعة العاشرة والحادية عشرة ، تراءت العربة المرجوة وهي خاوية ، عائدة ، ولكن سام لم يكن يتلفت حوله هذه المرة ، وسارت به العربة وهو يقظان حالم .

فصاحت سوفي ، « سام »

فالتفت فجأة وقد تهلل وجهه ، وكلف صديقاً صغيراً أن يمسك الحصان ، ونزل من فوق العربة ، وسار حتى وقف تحت النافذة .

فقال له سوفي : « سام . ليس يسهل على أن أنزل ، وإلا فعلت . أكنت تعلم أنني أقيم هنا ؟ » .

« كنت أعلم يا مسز توايكوت ، أنك تقيمين في مكان ما من هذا الشارع ، وكثيراً ما بحثت فيه عنك » .



ثم ذكر لها بإيجاز سبب وجوده في ذلك المكان . فمنذ أمد بعيد ، ترك عمله في حدائق القرية القريبة من ( أولد بركهام ) . وهو الآن يشرف على حديقة تاجر للخضر في الجهة الجنوبية من لندن . وصار من واجبه أن يذهب إلى ( كوفت جاردن ) بكميات من الحاصلات في مركبات مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع . وفي رده على استقصائها الدقيق ، أعترف بأنه أتى إلى هذه المنطقة بالذات لأنه قرأ في صحيفة ( أولد بركهام ) منذ عام أو عامين نبأ وفاة أسقف ( جايميد ) السابق في جنوب لندن . فأثار هذا شوقاً جارفاً لم يستطع إخماده ، لمعرفة مكان سكنها . وهذا دعاه إلى التردد على هذه المنطقة حتى حصل على وظيفته الحالية .

وجلا يتكلمان عن قريتهما ومسقط رأسيهما في لهجتها العزيزة .. لهجة وسكس الشمالية ، ويذكران ملاعب الطقولة . وقد حاولت أن تستشعر وقار مركزها الحالي ، وأن تتدارك نفسها ، فلا تكون صريحة غاية الصراحة مع ( سام ) . ولكنها لم تستطع التماسك ، فقد تمَّ تهدج صوتها عن دعة حائرة في عينيها .

قال سام : « لست ناعمة البال يا مسز تويكوت . يخيل إلى ذلك » .

— « لا . طبعاً . فلم يمض على وفاة زوجي عامان » .

— « كنت أقصد شيئاً آخر . هل تودين العودة إلى بلدك ؟ » .

— « هذا بلدي مدى الحياة . وهذا المنزل ملكي .. ولكنني فهمت .

وهنا كشفت عما يعمل في نفسها من الخواطر فقالت : « نعم يا سام . إنني أحزن

إلى بلدى .. بلدنا .. لكم وددت أن أكون هناك ، وألا أهجره أبداً  
وأن أدفن فى ثراه .

غير أنها ما لبثت أن عادت إلى نفسها فقالت : « على أن هذه نزعته  
وقتية عابرة . فلى ولد عزيز كما تعلم ، وهو الآن فى المدرسة » .

— « فى مدرسة قريبة من هنا على ما أظن ، فأنا أرى كثيراً من التلاميذ  
فى هذا الشارع » .

— « أوه كلا . ليس فى إحدى هذه المدارس الحفيرة البائسة . إنه  
فى مدرسة خاصة من أرقى مدارس إنجلترا » .

— « طبعاً . طبعاً . لا مؤاخذه . فقد نسيت يا سيدتى أنك صرت  
من كرائم السيدات منذ سنين عدة » . فأجابت فى حزن « كلا . لست  
من كرائم السيدات .. ولن أكون كذلك مطلقاً . ولكن ابنى سيد من  
السادة . وهذا هو الإشكال . فما أشقته على ! » .

وسرعان ما توثقت بينهما العلاقة التى عادت على هذا النحو العجيب .  
فكثيراً ما كانت تطل من النافذة ، لتحظى بمحديث قصير معه فى الليل أو  
فى النهار . وكان يؤسفها أنها لا تستطيع السير مع صديقها القديم الأوحى فى  
زهة قصيرة ، لتجدته فى طلاقة لاتتهياً لها وهو واقف أمام المنزل . وذات  
مساء فى أوائل يونيه ، بينما كانت ترقبه بعد أن غابت عن النافذة بضعة أيام ،  
دلف إلى الباب الخارجى ، وقال فى صوت متلهف : « أليس من المفيد لصحتك ،  
أن تخرجى لتستمتعى بالهواء ؟ ليس فى العربة اليوم إلا نصف حملتها ..

فلماذا لا تركيبها معي إلى ( كوفنت جاردن؟ ) وهناك مقعد على الكرسي لطيف ، غطيته بشوال ، وأستطيعين أن تعودى إلى منزلك فى عربة قبل أن يستيقظ أحد .

مانعت بادىء الأمر ، ثم لم تلبث أن غلبها الشوق ، وسرعان ما ارتدت ملابسها ، ودرت نفسها بمعطف ، واتخذت على وجهها نقاباً . ثم نزلت تطلع<sup>(١)</sup> على الدرج ، معتمدة على سياجه ، بطريقة تلجأ إليها إذا دعت الضرورة القصوى . ولما فتحت الباب وجدت ( سام ) على مراقته ، فحملها على ذراعه واجتاز بها الفناء الأمامى الصغير ، ثم وضعها فى المركبة . ولم يكن أحد يرى أو يسمع على طول الطريق المستقيم الذى ينبسط إلى غير نهاية ، والذى تسهر عليه دائماً مصايح مقاربة فى كلا الجانبين .

كان الهواء منعشاً ، شأن هواء الريف فى هذه الساعة . وكانت النجوم تتلألأ فى أرجاء السماء ، عدا الجانب الشمالى الشرقى ، حيث لاح ضوء الفجر الأغبش .

وضعها سام بعناية . . وأطلق العربة . . وأخذنا يتكلمان ، كما كانا يفعلان فى الأيام الخوالى ، غير أن سام كان يزجر نفسه بين الحين والحين ، كلما أحس أنه ذهب فى إسقاط الكلفة إلى حد غير لائق . أما هى فقد قالت لنفسها فى حيرة أكثر من مرة : « ترى أن كان يجدر بى أن أطلق العنان لعواطفى على هذا النحو؟ » ثم استدركت قائلة : « ولكننى أعيش فى منزلى عيشة مسرفة فى العزلة ، وهذه الزهدة تبهجنى » .

(١) تنز فى مشيتها .

— « لا بد أن تكرر هذه الرحلة يا مسز تويكوت ، فهذه أنسب الساعات للاستمتاع بالهواء » .

زاد النور رويداً رويداً ، وأخذت العصافير تغرد فوق أشجار الطريق ، وازدحمت المدينة من حولهما . ولما اقتربا من النهر كان النهار قد بزغ فشهدا شمس الصباح متوهجة رائعه صوب كنيسة القديس يولس ، وكان النهر في ناحيتها ملتصقاً لا يسرى على صفحته شرع .

ولما اقتربا من ( كوفنت جاردن ) وضعها في عربة ، واقترق الصاحبان ، وكل منهما ينظر في وجه صاحبه نظرة الصديق القديم . . وهل كانا في الواقع إلا كذلك ؟ .

وبلغت المنزل في أمان ، وظلعت حتى بابه ، ففتحته بمفتاحها الصغير ودلقت إلى الداخل دون أن يراها أحد .

تجددت حيويتها من أثر الهواء ولقاء سام ، وبدا خدائها في لون الورد ، فقد صار لديها إلى جانب ابنها شيء آخر تعيش من أجله . ولم تدرك ، لصفاء فطرتها وسلامة طويتها أنها ارتكبت خطأ لامرأه فيه ، حين أقدمت على ما أقدمت عليه .. خطأ يعده العرف خطيئة كبرى .

وسرعان ما أغريت بالذهاب معه مرة أخرى ، وكان حديثهما في هذه المرة عاطفياً بآدى الرقة . فقد أكد لها سام أنه لن ينساها أبداً ، وإن كانت قد أساءت معاملته شيئاً ما في وقت ما . وبعد تردد طويل كاشفها بخطة . يستطيع أن ينفذها ، ويتوق إلى نجاحها ، لأنه لا يعبا بعمله في لندن . ذلك أنه يريد أن يفتتح متجر للخضر في ( أولد بركهام ) ، حاضرة الناحية التي

شهدت مولديهما. وهو يعلم أن هناك دكاناً يملكه قوم مسنون ، يريدون بيعه .  
— « ولماذا لا تنفذ هذه الخطة يا سام ؟ » كان هذا سؤالها في شيء  
من الأسى والأسف .

— « لأنى لست واثقاً أنك ستشاركينى الحياة هناك . أنا أعلم أنك  
لن تفعلى ، ولا تستطيعين أن تفعلى . . فسيده مثلك ، لها هذا المركز الرفيع  
منذ زمان طويل ، لا تستطيع أن تتزوج من مثلى »  
فأجابت وقد أخافتها الفكرة : « نعم . أكاد لا أعتقد أنى أستطيع » .  
فقال فى حماسة : « إذا كنت تستطيعين ، فكل ما عليك أن تجلسى  
فى حجرة الاستقبال الخلفية ، وتنظرى من خلال الحاجز الزجاجى ، لتراقبى  
الأشياء فى غيبتى . لن يعوقك العرج عن ذلك ، ولن أذخر وسعاً فى إيقائك  
سيده محترمة يا سونى العزيزة . . لو كان لى أن أفكر فى ذلك ! » كذلك  
قال فى توسل وضراعة .

فأجابت وقد وضعت يدها على يده : « سام . سأكون صريحة معك .  
لو أن الأمر يتعلق بى وحدى لأجبتك فى سرور ، وإن افتقدنى هذا الزواج  
كل ما أملك » .

— « انه لا يهينى . . فنحن لا نعول على شيء من ذلك » .  
— « هذا كرم منك يا أعز الناس . ولكن شيئاً آخر يهينى . .  
فلى ولد ، وأنا أحس أحياناً حين يشتمل على البؤس أنه ليس لى ، وإنما هو  
أمانة فى عنتى أرعاها لزوجى الراحل . هذا الولد لا يكاد ينتسب الى ،  
بينما ينتسب الى أبيه اتم نسبه . فتعليمه أرقى ما يكون ، وحظى من التعليم أقل .

ما يكون ، بحيث أشعر أنى غير جديرة به . هذا الغلام يجب أن يحاط علماً .  
فقال سام ، وقد فهم رأيها ومخاوفها « نعم... من غير شك » ثم أضاف  
« ومع كل ، فأنت تستطيعين أن تفعل ما تشاءين يا سوفى — آسف يا مسز  
تويكوت — فأنت لست إبنته، وإنما أنت أمه » .

— « آه . إنك لا تعلم ! لو أنى أستطيع ، لتزوجتك يا سام فى يوم من  
الأيام . ولكن لا بد أن تمهلنى قليلاً ريثما أفكر » .  
كان هذا وعداً يكفيه . فانصرف مغتبطاً مسروراً . أما هى فلم تكن  
مسرورة ولا معتبطة ، لأن مكاشفة راندولف تبدو فى نظرها أمراً مستحيلاً .  
ومع ذلك فهى تستطيع أن تنتظر ، ريثما ينتقل إلى أ كسفورد ، فلا يكون  
لتصرفاتها أثر كبير فى حياته . ولكن هل سيقبل الفكرة يوماً ما ؟ وإذا لم  
يقبل فهل تستطيع أن تتحداه ؟ .

لم تكن قد فاهت بكلمة عن موضوعها ، حتى أقيمت فى ( يوم الرب <sup>(١)</sup> )  
مباراة ( الكريكت ) السنوية بين المدارس الخاصة . وكان سام قد عاد إلى  
( أولاد برهام ) . وفى ذلك اليوم شعرت مسز تويكوت أنها أقوى ضجة من  
العتاد . فذهبت تشهد المباراة مع راندولف ، واستطاعت أن تدع كرسىها  
وتتمشى بين الحين والحين . وما لبثت أن لمعت فى ذهنها فكرة هى أنها  
تستطيع أن تشير إلى الموضوع عرضاً فى أثناء تجوالها بين النظارة ، حين يكون  
اهتمام راندولف موجهاً لشهود اللعب والحماسة له ، بحيث تتضاءل المسائل  
المنزلية ، وتخف فى ميزانه ، إزاء روعه هذا اليوم . فجعلها سيران تحت شمس

(١) عيد من الأعياد المسيحية .

يولية الساحبة ، هذان الشخصان البعيان كل البعد ، القرينان كل القرب ، ورأت نسوفي أغلب الطلبة يرتدون كآبها زيقاً أبيض عريضاً أو قبعة صغيرة ، كما رأت هنا وهناك صفوفًا من العربات الفخمة ، تختلط تحتها بقايا الطعام الفاخر من عظام ، وقشور فطائر ، وزجاجات شمبانيا وأكواب وأطباق ومشوشات وأواني العائلة الفضية . بينما يجلس الآباء والأمهات الفخورات داخل تلك العربات . . ولكنها لم ترينهن أما فقيرة مثلها . ولولا أن راندولف من هؤلاء السادة . ولولا أنه قصر اهتمامه عليهم وعلى الطبقة التي ينتسبون إليها لسارت الأمور سيرة سعيدة .

وعلا فجأة هتاف جمهرة من الأقارب لضربة تافهة بالمضرب ، وقفز راندولف متحمساً في الهواء ليرى ما حدث . واسترجعت نسوفي في ذهنها الجملة التي كانت قد أعدتها . ولكنها لم تستطع أن تنيس بها ، فالظرف غير مناسب ، لأن التباين شديد بين قصتها وبين مظاهر الأبهة التي شب ابنها على اعتبار نفسه منسوبا إليها . ومن شأنه ولا ريب أن يهدم آمالها نهائياً فانتظرت حتى يحل وقت أنسب

وكان ذلك في أمسية ، وكانا على انفراد في منزلها البسيط في الضاحية حيث الحياة قائمه ، فبددت السكون الخميم بأن أعلنت أنها قد تتزوج مرة ثانية . ثم لطف من وقع هذا الإعلان بتأكيد قاطع أن هذا الزواج لن يحدث إلا بعد وقت طويل ، حين يحيا حياة مستقلة ولا يكون في حاجة إليها . فرأى الفكرة معقولة جدا . وسألها إن كانت اختارت شخصا ما ، فترددت . وبدأت عليه الشكوك . فقال أنه يأمل أن يكون الزوج سيديا .

فأجابت في تهيب « ليس سيدا بالمعنى الذى تتصور . انه من طبقى  
قبل أن أتزوج من أليك » ثم أحاطته تدريجاً بكل شيء . فتصلبت ملامح  
الشاب برهة من الزمن ، ثم احمر وجهه ، ومال على المنضدة وانفجر  
بأكياً فى لوعة .

فذهبت أمه اليه . وقبلت كل ما استطاعت أن تصل إليه من أجزاء  
وجهه . وربت على ظهره كأنه لا يزال طفلاً صغيراً ، ثم أخذت هى الأخرى  
تبكى ، ولما استفاق شيئاً هرع إلى حجرته الخاصة ، وأوصد الباب دونها .

وحاولت التحدث إليه من خلال ثقب المفتاح . ووقفت هى خارج  
الحجرة تنتظر وتنصت . ومضى وقت طويل قبل أن يرد . ولما رد كان جوابه  
فظا بالغ القسوة ، إذ قال وهو فى داخل حجرته ، « ما أشد خجلى لك ! !  
إن زواجك هذا يطمئنى ويقضى على ! جاهلة ، تعسة ، حمقاء ، ماجنة ، إن  
هذا الزواج يفضحنى ويحط من قدرى فى نظر كل سادة انجلترا » . فقالت  
وهى تبكى فى بؤس : « كفى . ربما كنت مخطئة .. سأحاول ألا يتم شيء » .

وقبل أن يغادرها راندولف هذا الصيف ، وصل خطاب من سام  
ينبئها أنه نجح نجاحاً لم يكن منتظراً فى شراء الدكان ، وهو أكبر متجر فى  
المدينة للفاكهة والخضروات . وأن هذا سيمكنه من أن يهبىء لها بيتاً  
جديراً بها يوماً ما . وسألها إن كان ميسوراً أن يلقاها إذا هرع إلى لندن .  
قابلته سرا . وذكرت له أن عليه أن ينتظر مدةً أخرى قبل أن يسمع  
جوابها الأخير . ومضى الخريف مثاقلاً . وعاد راندولف إلى المنزل فى عطلة



آخر السنة ، فعادت إلى الموضوع مرة أخرى . ولكن الشاب كان في هذه المرة صلباً لا يلين .

تُرك الموضوع أشهراً ، ثم فتح من جديد . ثم ترك تفادياً لثورته . ثم أعيدت المحاولة مرة أخرى . وهكذا جعلت المرأة الوديفة تقنع وتتوسل حتى مرت أربعة أعوام أو خمسة . ثم أعاد سام ، الرجل الأمين ، طلب الزواج في كثير من الإلحاح . وكان ابن سوفي ، وهو الآن طالب بالجامعة ، قد أتى من أكسفورد ليقضى عطلة عيد الفصح ، فأعادت عرض المشروع ، وحاولت أن تثبت له أنه حالما يصير قسيماً فسيكون له منزل خاص به ، وستكون أجروميتها الخاطئة وجهها يؤذيانه . فخير له أن يقصها عن حياته . وكان أكثر رجولة في غضبته مما كان في غضبته الأولى ، ولكنه لم يوافق وكانت هي من جانبها أمعن إصراراً من ذي قبل . فلم يعد يطمئن إليها إبان غيابه . على أنه ظل سادراً في غضبه وازدرائه لذوقها ، ممعنا في جبروته واستعلائه . وأخذها آخر الأمر أمام صليب ومذبح كان قد أعدهما في غرفة نومه ، وأمرها أن تركع ، وأن تقسم أنها لن تتزوج من ( سام هوبزون ) دون إذنه قائلًا : « هذا حق أبي علي »

أقسمت المرأة المسكينة وفي ظنها أن شعوره سيرق بمجرد أن تتم رسامته الكهنوتية وينشغل في عمله الكنسي . ولكنه لم يرق ولم يلين . فقد اجهز تعليمه على انسانيته وقضى عليها ، وجعله عنيدا صارماً متمجرفاً ، مع أن أمه ربما كانت تهيئها أسباب السعادة والنعيم ، مع صاحبها الأمين تاجر الفاكهة والخضر ، دون أن يحيق ضرر ما بأى إنسان في العالم .

وثقل عليها العرج بمضى الزمن ، وصارت لا تغادر منزلها المطلق على الطريق الجنوبي الطويل إلا في أندر الأوقات ، إن كانت تغادرة على الإطلاق . وفي هذا المنزل كان قلبها يتأكل رويداً رويداً ، وكانت تهمهم لنفسها في أسف حين لا يكون بقربها أحد : « لماذا لا أقول لسام إنى سأتزوجه ؟ لماذا لا يتاح لى ذلك ؟ »

ومضت أربع سنوات على هذا التاريخ ، وكان رجل فى منتصف العمر يقف عند باب أكبر متجر للفاكهة فى أولدبركهام ، إنه صاحب هذا للمتجر ، ولكنه بدلا من أن يرتدى ثياب العمل العادى ، لبس اليوم سترة سوداء أنيقة ، وأقبل بعض واجهة محله ، وأقبل موكب جنازة من المحطة . . . ومر الموكب بالمتجر ، ثم غادر المدينة متخذاً سبيله إلى قرية ( جايميد ) . وكان الرجل يمسك قبعته فى يده ، والدموع تذرف من عينيه ، والعربات تمضى أمامه . وكان فى أولها شاب قسيس حليق ، يرتدى صدرية عالية ، نظر إلى صاحب المتجر ، فعلت وجهه كدرة .

# اراحة الضمير

- ١ -

سواء أكان الإنسان يعمل الخير ابتغاء المنفعة ، أو استجابة للقطرة ،  
فما لا شك فيه أن بعض ذوى الحس المرهف ، يفعلون الخير إذا كانوا  
مختارين اختيارا مطلقا ، بينما يتلمسون المعاذير للتهرب إذا أحسوا بأنهم  
مضطرون اليه ، محمولون عليه . وتصور قصة مستر ملبورن ومسز فرانكلاند  
هذه الحقيقة أصدق تصوير ، وربما صورت إلى جانبها حقائق أخرى .  
لم يكن أحد معروفا لعابري الطريق من سكان الناحية أكثر من  
مستر ملبورن في غدواته وروحاته اليومية في شارع هادىء معروف من  
شوارع لندن ، حيث كان يقيم في المنزل رقم (١١) ، وإن لم يكن صاحب  
أسره . وكانت سنه خمسين سنه على الأقل ، وكانت عاداته مثال الأنتظام ،  
شأن من لا عمل لهم إلا البحث عما يشغلون به أنفسهم . فهو إذا بلغ نهاية  
الشارع انحرف إلى اليمين غالبا ، ثم مضى قدما في شارع (بوند) حتى يصل  
إلى النادى . وكان يعود منه في نفس الطريق تماما مشيا على القدم حوالى  
الساعة السادسة . وإذا تناول عشاءه تأخر قليلا وعاد في عربه . وكان  
معروفا أنه رجل ذو مورد ، وإن لم تبد عليه امارات الثراء . وكان عزبا  
فأمر أن يحتفظ بنظامه الحالى ، فيظل نزيلا في أجمل حجرات (مسز تونى) ،  
يستعمل أثاثا دفع ثمنه عشرات المرات ، إبان مقامه بهذه الحجرات الموثته ،  
مؤثرا ذلك على استئجار منزل خاص .

ولم يحاول أحد من يعرفونه أن يزيد به علما ، لأن أخلاقه ومزاجه لاثيران فضولا ، ولاغيريان بصداقة وثيقة . فهو لا يبدو صاحب هم يرضيه أو سر يخفيه أو خبر يرويه .

وكان يفهم عادة من حديثه العابر أنه ريفي المولد ، من أهالي مكان مافي (وسكس) وأنه نزع إلى لندن في شبابه ليشتغل في مصرف ، وتدرج فيه إلى مركز له خطر ، ولما مات أبوه ، وكان رجلا موقفا في استقلال أمواله ، ورث الابن ثروة شجعتة على التعجيل بترك الخدمة .

وتوعكت صحته عدة أيام وعاده بعد العشاء دكتور بندون ، أحد أطباء المركز الصحي المجاور ، وجعلا يدخان إلى جانب المدفأة . فقد كان ألم المريض هينا لا يشغل البال ، فتطرق حديثهما إلى موضوعات قليلة الخطر ، وانتهز ملبورن القرصة ، وهز رأسه قائلا في ا كتاب :

« أنا يا بندون رجل منطو على نفسي ، أعيش في عزلة تامة لاتعرف لها مثيلا . وكلما تقدمت بي السن زدت ضيقا بنفسي . وقد حدث اليوم ما أثقل همي وأعاد إلى ذهني حادثا يقض مضجعي أكثر من كل ما مر بي في حياتي . ذلك الحادث هو أني أخلفت وعدا قطعتة على نفسي منذ عشرين سنة . وقد عرف عني في معاملاتى أنى رجل يحترم كلمته . ولعل هذا هو السبب في أن عهدا قطعتة على نفسي ثم أخلفتها ، يعاودنى شبحا . . قد لا تتناسب ضخامته مع حقيقة خطورته . يعاودنى خاصة في مثل هذه الساعة من كل يوم . أتعرف ما ينتاب الانسان من ضيق كلما أحس ، وهو بين النوم واليقظة ، أن بابا أو شيا كما قد ترك مفتوحا . أو كلما تذكر

بني النهار أنه لم يجب على ما جاءه من خطابات ؟ هكذا يعاودني هذا الوعد ، ويوسوس في صدري من وقت إلى وقت ، وخاصة اليوم .

ساد الصمت وأخذنا يدخان . وكانت عينا ملبورن شاخصتين إلى النار ، بينما ترنوان في الوقع إلى بلدة في غرب إنجلترا .

وتابع حديثه قائلاً : « نعم لم أنس هذا الوعد قط ، وإن كان قد تنحى عن طريقي ، واختفى في زحمة المشاغل ، طوال سنى العمل المتواصل . وكما قلت ، حدث اليوم بالذات أن قرأت في النشرة القانونية عن حادث من نفس النوع ، فأثار الذكرى في خاطري . ومع ذلك ، فسأخبرك في إيجاز بما كان من هذا الأمر : وإن كنت ولاشك — وأنت الخبير بالحياة — ستبسم لفرط حساسيتي حين تسمعه : أتيت إلى لندن في سن الحادية والعشرين من ( تونبرو ) في وسكس مسقط رأسي . وقبل أن أغادرها قنصت قلب شابه في مثل سنى ، ووعدها بالزواج ، وتقاضيت ثمن هذا الوعد ،

وها أنذا ما زلت غزبا ؟ »

— « القصة القديمة »

فأوما بالايجاب .

« تركت المدينة . وظننت وقتئذ أني أتيت عملاً رائعا ، فقد أفلت في سهوله من موقف معقد . على أن الحياة قد امتدت بي حتى عاودتني ذكرى هذا الوعد تورقني وتزعجني . وفي الحق أنها لا تعاودني مطلقا في صورة بوخز الضمير ، بل في صورة السخط على نفسي ، بوصفي نموذجاً لكتلة الأحياء ، التي تدعى ( بني الانسان ) . إني إذا طلبت اليك أن تقرضني

خمسين جنيتها على أن أردھا في منتصف الصيف القادم ، ثم لم أفل ، صرت في عداد غير الشرفاء ، ولا سيما إذا كنت في حاجة قصوى إلى هذا المبلغ ولكني وعدت هذه السيدة بالزواج بنفس هذا الوضوح ، ثم أخافت الوعد يمتنهي البرود . وكان هذا تصرف لبق ، لا عمل ذنى . وترتب على ذلك أن عوّقت المسكينة بطفلة ، ولم أعوّق أنا ، فدفعت وحدها الثمن ، إذا استثنينا تعويضا ماليا دفع لها . هذه هي الذكرى الأليمة التي انكأها دائما ولعلك لا تصدق أنى رغم مرور سنوات كثيرة وانقضاء كل شيء . إذ لا بد أنها الآن امرأة عجوز . كما أنى رجل مسن ، فإن هذه الذكرى لا تزال تحطم في نفسى عاطفة الاعتزاز بالكرامه »

— « لقد فهمت . إن كل شيء يعتمد على المزاج . فآلاف من الناس ينسون كل شيء لو كانوا في مكانك . ولعلك كنت تنساه أيضا ، لو أنك تزوجت وكونت لك أسرة .  
هل تزوجت هي بعد ذلك ؟ »

— « لا أظن . كلا إنها لم تزوج قط . لقد هجرت ( تونبرو ) ثم ظهرت بعد ذلك باسم مستعار في ( ا كسنبرى ) في المقاطعة المجاورة ، حتى لا يعرفها أحد ، وأنا قلما أذهب إلى هذه الجهة . ولكنى فى أثناء مرورى بهذه البلدة ذات مرة ، علمت أنها من أهل البلدة القيمين . وأنها تشغل مدرسة للموسيقى .. أو شيئاً من هذا القبيل .. سمعت ذلك عرضاً حين كنت هناك منذ عامين أو ثلاثة . غير أنى لم أرها قط منذ معرفتنا الأولى ، وربما لا أعرفها إذا رأيتها »

فسأله الطيب « وهل عاشت الطفلة ؟ »  
فأجابه صاحبه : « مؤكد أنها عاشت عدة سنين . ولكن لا أدري  
أهى لا تزال على قيد الحياة أم لا . كانت بنتا صغيرة .. ولعلها الآن متزوجة  
إذا حسبنا السنين »

— « والأم . هل كانت شابة مهذبة فاضلة ؟ »  
— « نعم كانت فتاة عاقلة هادئة .. لا تستهوى الناظر العادى ولا تنفره ..  
شكلها عادى .. وكان مركزها حينما تعارفنا يقل عن مركزى . كان أبى  
محميا كما أظن أبى أخبرتك ، وكانت هى صبية تعمل فى محل موسيقى .  
واستقر رأى أسرتى على أن زواجى منها لا يليق .. ثم وصلنا إلى  
هذه النتيجة » .

— « حسنا .. ولكن كل ما أستطيع قوله ، إنه بعد إنقضاء عشرين  
عاما يكون وقت إصلاح مثل هذه المسائل قد فات  
فلا بد أن الزمن أصلحها . وخير لك أن تطرد هذه الخواطر من  
ذهنك ، وأن تعتبر ما حدث شرا لا سلطان لك عليه .

طبعا إذا كانت الأم والابنة — كلتاهما أو إحداها — على قيد الحياة  
فى إمكانك أن تخصص لهما بعض مالك ، إذا أردت ، وكان لديك فضل  
من مال »

— « ليس لدى كثير من المال يزيد عن حاجتى .. ولى أقارب فى  
ظروف ضنك ، ربما فاقت ظروفهما سوءاً . ولكن هذا ليس نيت القصيد .  
فلو أنى كنت غنيا ، لما شعرت أبى أستطيع إصلاح الماضى بالمال . أبى لم أعد

بإثرائها ، بل لقد أخبرتها أن زواجنا سيجر علينا — في أغلب الظن —  
تقراً مدقماً ولكنى وعدتها بالزواج «  
فأجاب الطيب مازحاً وهو يهيم بالانصراف : « إذن . ابحث عنها  
وتزوجها » .

— « آه يابندون .. هذه هي الدعابة المألوفة في مثل هذه الحالة . ولكنى  
راغب عن الزواج تماماً .. وأنا قانع كل القناعة بأن أحيا كما حيت ..  
فأنا عذب بالطبع والغريزة والعادة .. هذا إلى أنى لا أشعر نحوها بظل من  
الحب ، وإن كنت مازلت أحترمها وأراها بريئة من كل شائبة . فهى فى  
رأى امرأة لا تسيء بها الظن ولكنها لا تشوقك . وإنما يدفنى إلى البحث عنها  
برغبة خالصة فى إصلاح الخطأ .. ورأى أن أعقد عليها دون احتفال » .  
فقال صديقه فى دهشة : « لعلك لا تفكر فى هذا جاداً » .

— « إني أحياناً أفكر فى إنجازه إذا أمكن .. كما أستعيد — كما  
صارتك — شعورى بأنى رجل شريف » .

فقال دكتور بندون : « أتمنى لك التوفيق فى مشروعك . ستبرأ من  
مرضك وتعاود هذا الكرمى عما قليل . وتستطيع حينئذ أن تختبر هذا الخاطر  
النجائى . ولكن بعد عشرين عاماً من الصمت ، أنصحك ألا تقدم » .

ظلت نصيحة الطيب تتأرجح فى ذهن ملبورن ، إزاء روح جاد مستمسك  
بالبدا ، كاد يبلغ من نفسه مبلغ العقيدة الدينية ، وظل يحتلج فى صدره  
لثة أشهر .. وربما سنوات .



ولم يكن لهذا الشعور مع ذلك أثر مباشر في تصرفات مستر ملبورن ..  
فسرعان ما شفى من مرضه اليسير ، وأنسب نفسه على انزلاقها إلى إفشاء  
سر من أسرار الضمير لانسان مهما كان . ورغم أن القوة التي دفعته إلى  
ذلك الإفشاء ظلت كامنة ، فإن جنونها لم تحب ، بل لقد قويت واستمرت  
في النهاية . فما كادت تمضى أربعة أشهر على المرض وإفشاء السر ، حتى  
وجد مستر ملبورن نفسه ذات صباح رُبَعَى معتدل ، في محطة ( بادنجتون )  
وقد استقل القطار الذاهب إلى الغرب . ذلك أن أفكاره الكثيرة التي  
جعلت تعاوده من وقت إلى وقت عن الوعد الذي أخلف ، والذى كان  
يجبها وجهاً لوجه في وحدته ، قد جددت سلوكه آخر الأمر .

لقد حفزه إلى هذا المسلك الحاسم ، أنه علم وهو يتصفح دليل البريد  
منذ يوم أو يومين ، أن المرأة التي لم يقابلها طيلة عشرين عاماً لا تزال  
تعيش في ( اكسبرى ) متحلة بهذا الاسم الذى اتخذته منذ عودتها من  
الخارج ، بعد عام أو عامين ، من اختفائها هي وابنتها من بلديهما ، حين  
تظاهرت بأنها شابة أرملة لها طفلة . وعلم أنها تقيم في مسكن خاص بالمدينة  
المذكورة ، وأن حالتها — على ما يبدو — لم تتغير إلا قليلاً . وأن ابنتها  
تقيم معها لأن اسميهما في الدليل ( مسز ليونورا فرانكلاند ومس فرانكلاند ..  
مدرستا الموسيقى والرقص ) .

وصل مستر ملبورن إلى ( اكسبرى ) بعد الظهر . وكانت مهمته  
الأولى قبل أن ينقل متاعه إلى داخل المدينة ، أن يبحث عن المنزل الذى  
تسكنه المدرستان .

وكان العشر عليه يسيراً ، فقد كان قائماً في ساحة مكشوفة وسط المدينة ، وكان على بابها لافتة من النحاس المصقول تحمل إسميهما واضحاً . . . وقد تردد في الدخول قبل أن يقف على معلومات جديدة . وأخيراً نزل في مسكن فوق دكان لعب مقابل لمنزل المدرستين ، واحتفظ لنفسه بحجرة استقبال تواجه حجرة استقبال مماثلة في منزلها ، كانت تعطى فيها دروس الرقص . ولما استقر به المقام ، استطاع بطريقة لبقة كيّسة لاثثير شيكا أن يتحرى . . . وأن يلاحظ أخلاق السيدتين المقيمتين في الجانب الآخر من الشارع . . . وقد تحرى ولاحظ في كثير من التؤدة والروية .

فلم أن الأرملة ، مسز فرانكلاند التي تقيم معها ابنتها الوحيدة فرانسيز ، تحظى بسمعة طيبة بثلج الصدر ، فهي نشيطة دائبة في تعليم تلاميذها الكثيرين ، وابنتها تعاونها في ذلك . . . هذا إلى أنها صارت من أهل المدينة البارزين . وإذا كان الرقص عملاً تافهاً من الوجهة الاجتماعية ، فإن الأرملة — في الواقع — كانت سيدة جادة العقل . . . اضطرتها الظروف إلى كسب عيشها بتعليم ما تعلم . فجعلت تكفر عن هذا بالمساهمة في أسواق الخبز ، والمشاركة في الحفلات المقدسة ، وعزف قطع موسيقية ابتغاء جمع المال للمخلوقات الشريفة الضالة . . . وغير ذلك من المشروعات الخيرية التي يتحمس لها هذا البلد المستنير .

وكانت الابنة من العضوات البارزات في جماعة الشابات اللأئي يزرن الكنائس في عيد الفصح وعيد الميلاد ، فكانت تعزف على الأرغن في إحدى الكنائس . وقد ساهمت في شراء إثناء العشاء الفضي الذي قدم هدية

للأنسقف مستر (ووكر) عرفاناً بفضل جهده الصادق في ترتيباته ، طيلة ستة أشهر قضاها مساعداً للمرتل الرسمي في الكاتيدرائية . ويندو تجلياً أن الأم والابنة ، امرأتان نموذجيتان حسنتي السيرة ، بين القوم الوداعين في اكسبرى .

وكانتا تتركان نوافذ حجرة الموسيقى مفتوحة شيئاً ما ، وهذه وسيلة طبيعية بسيطة من وسائل الاعلان . وهكذا كنت تستطيع في أثناء سيرك على طول الطريق ، في أية ساعة بين الشروق والغروب ، أن تسمع مقتطفات نادرة من الموسيقى الكلاسيية ، يؤديها الصغار في سن الثانية عشرة أو الرابعة عشرة على قدر سنهم . ولكن معظم إيراد مسز فرانكلاند يأتي — على ما يقال — من تأجيرها لآلات ( البيانة ) ، وبيعها بوصفها وسيلة للصانعين .

أقرت هذه المعلومات عين مستر ملبورن . . فهي ترضى عليهما شرفاً بالناء ، فاق كثيراً ما كان يرجو ، فشغف بأن يرى المرأتين اللتين تعيشان هذه المعيشة الطاهرة .

ولم يمض وقت طويل حتى لمح (ليونورا) غداة وصوله واقفة على مرقاة بابها ، تفتح المظلة . . نحيلة غير شاحبة ، ذات شعر آخذ في المشيب . ورأى وجهاً حسن الطلعة رزيناً قد أخذ مكان ذلك الوجه الذي انتهواه فترة ما أيام الشباب . . بدت في مسوح سوداء تلامم شخصيتها كأرمامة . ثم ظهرت الابنة بعدئذ . . صورة غضة مستديرة من أمها ، وترسم في

ملاحظتها سمات العزم والتصميم التي تبدو في وجه ليونورا . وكانت تثب في خطوها وثبات أشبه بوثباته أيام كان في سنها .

فبعد عزمه نهائياً على زيارتهما للمرة الأولى . ولكنه رأى أن يمهد لهذه الخطوة فأرسل خطاباً إلى ليونورا في الصباح التالي ، يعرب فيه عن رغبته في زيارتها ، ويقترح المساء موعداً لذلك . لأن عملها يستغرق النهار بطوله . وصاغ خطابه بحيث لا يحتاج إلى رد ، فقد يجرها أن تكتبه لم يأت رد . . ولم يكن له بطبيعة الحال أن يدهش ، غير أنه اشم في ذلك رائحة الزجر . . لأنها لم تتبرع برد لم يطلبه إليها .

عبر الشارع في الساعة الثامنة ، وهي الساعة التي حددها هو لزيارتها . فأدخلته الخادم دون ما ترحيب . وقابلته مسز فرانكلاند — وهو الاسم الذي صار يطلق على السيدة — في حجرة الموسيقى والرقص الواسعة في مقدمة الدور الأول ، لا في حجرة استقبال صغيرة خاصة كما توقع . فأسدل هذا التصرف على مقابلتها الأولى ، بعد هذه السنوات الطويلة من الفراق ، ظلاً قائماً لا تومض خلاله عاطفة .

وقفت أمامه المرأة المجنى عليها ، في زي رائع استلقت نظره ، وهو الذي رأى أجمل أزياء لندن ، وبدا عليها وهي مقبلة وقار يغشاها شيء من العبوس ، فلا ريب أنها لم تطرب للقائه . . وماذا عساه ينتظر بعد إهمال عشرين عاماً ؟ قالت في تल्पف كما تقول لأي زائر عابر : « كيف أنت يا مستر ملبورن ؟ أنا مضطرة أن أستقبلك هنا ، لأن ابنتي معها صديق في الدور الأرضي »

— « ابنتك . . وابنتي أيضاً »

فأجابت في سرعة كأنه ذكرها بما نسيت : « آه . . نعم . . نعم . .  
ولكن كلما قل كلامك عن هذا كان خيرا . . لصالحى . . أرجو أن  
تعاملنى على أنى أرملة »

— « بالتأ كيد يالينورا » ولم يستطع أن يسترسل في الحديث ، لأن  
أسلوبها كان باردا غاية البرود ، خاليا من كل أثر للاهتمام ، بعيدا كل البعد  
عما كان يتوقع ، من مشاهد العتاب الحزين ، الذى رقى وعذب بمضى  
الزمن . فمضى إلى هدفه دون تمهيد .

— « هل أنت غير مرتبطة يالينورا . أعنى فى مسألة الزواج ؟ هل  
أنت مخطوبة أو . . »

فقالت فى شيء من الدهشة : « كلا لست مرتبطة مطلقا يا ملبورن .

— « إذن سأخبرك لماذا جئت . منذ عشرين عاما وعدتك بالزواج ،

وهاء نذا قد أتيت لأبر بهذا الوعد . . وعفا الله عما سلف »

فزادت دهشتها وإن لم تتحرك مشاعرها . وبدأت عليها الكتابة .  
والاستهجان . وقالت بعد برهة أو برهتين : « أظن أنى لا أستطيع قبول  
مثل هذه الفكرة ، وأنا فى هذه السن ، إنها تحدث ارتباكا بالقافى حياتى .  
فلى دخل مالى لا بأس به ، ولا حاجة بى إلى مساعدة من أحد ،  
ولا رغبة لى فى الزواج . ماذا أغراك بالإقدام على أمر كهذا ؟ إنه لعجيب  
حقا ، إذا كان لى أن أقول ذلك » .

فأجاب ملبورن في غير وضوح : « لا ريب أنه كذلك . فيما أظن »  
ثم أردف ذلك بقوله « يجب أن أذكر لك أن هذه الرغبة لا يكاد يدفني  
إليها الحب . فأنا أريد أن أتزوجك يا ليونورا ، بل أرغب في ذلك رغبة  
شديدة ، لأنهم مسألة ضمير ، مسألة وفاء بلعهد ، لقد وعدت بك بالزواج ، وكان  
عاراً أن أمخلي عنك وأختفي ، فأنا أريد أن أزيل عن نفسي ذلك الإحساس  
بالعار قبل أن أموت . . . ولا شك أننا قد نجد عهد الحب حاراً كما كان  
في السنوات الخالية » .

فهزت رأسها في ارتياب : « إنني أقدر النوازع التي تجيش في صدرك  
يا مستر ملبورن . ولكن يجب أن تقدر أنت أيضاً موقفي ، فإن فعلت  
أدركت أنني شخصياً زاهدة في الزواج . . . ومن ثم فلا أرى مبرراً لأن أغير  
حالتى الراهنة . . . ولا في سبيل إزاحة ضميرك . . . إن لى في هذه المدينة مركزاً  
محترماً بلغته بما بذلت من جهود مضية . . . ولا أطيل عليك فما من شيء  
يحملنى على تغيير مركزى . . . وابنتى توشك أن يخطبها شاب سيكون لها  
زوجاً ممتازاً ، شاب يلائمها من كل الوجوه ، هو الآن معهما في الدور الأرضى »  
— « وهل هى تعلم . . . شيئاً عنى ؟ » .

— « أوه . . . لا . . . لا قدر الله . . . فأبوها فى اعتقادها قد مات  
وواراه التراب . . . وهكذا تسير الأمور رخاء . . . ولا أريد أن يضطرب  
سيرها » .

فأوماً بالايجاب وقال « حسنا » ، ونهض لينصرف ، وما إن بلغ  
الياب حتى عاد أدراجه وقال فى إلحاح ؛ « على أية حال لقد جئت

يالينورا أقصد غرضاً معيناً . . ولا أرى أنه يحدث اضطراباً . . فأنت إنما تتزوجين صديقا قديما ، أفلا تتدبرين الأمر من جديد ؟ . . اننا لانعدو الصواب إذا تزوجنا ولو من أجل ابنتنا . »

فهرزت رأسها وجعلت تنقر الأرض بقدمها في عصبية . فقال ملبورن : «إذن فلا داعي لتعطيلك . سأبقى في أكسنبرى . فهل يؤذن لي بزيارة أخرى »  
« نعم . . لا مانع » كذلك كان جوابها في ضجر وتبرم .

وإذا كانت هذه العواطف التي صادفته لم توظف حبه لليونورا ، فهي لامراء قد حضرته — كما يستعيد طمأنينة نفسه — إلى مغالبة البرود الذي بدا منها ما وسعه ذلك . فألخف في الزيارة . وفي أول مرة لقي ابنته أحس بضيق شديد ، وإن لم يشعر بشيء يجذبه إليها كما كان يقدر . فهي لم تستر عطفه .

وأسرت الأم لفرانسيز بغرض صديقها القديم ، فنظرت إلى هذا الغرض بعين المقت الشديد . واجتمعت كلمة الأم والابنة على رفضه . وظل ملبورن وقتا طويلا لا يستطيع أن يؤثر في مسر فرانكلاند أقل تأثير . فكانت تضيق بمجاملاته بدلا من أن تطرب لها . وكان يدهش لعنادها واصرارها ، وكانت لانتاثر قط بما يسوقه تبريرا لزواجهما . . . إلا إذا ضرب على وتر الأخلاق كأن يقول لها : «الحق أنه ينبغي علينا كشخصين شريفيين أن نتزوج . . هذا هو الحق يالينورا . »

فتجيبه في سرعة ، « لقد فكرت في الموضوع على هذا الضوء . . وتأثرت أول الأمر ؛ ولكنني لم ألبث أن وجدت أن حججك ضعيفة

واهية . فأنا أنكر بتاتا أى ملزمة بعد هذه المدة الطويلة أن أتزوجك من أجل الشرف : لو آتى هذا العرض فى وقته المناسب لقبلكه ، كما تعلم جيداً . ولكن ما فائدة العلاج الآن ؟ »

وكانا واقفين عند النافذة فأقبل نحو الباب شاب ذو شارب صغير ، يرتدى ثيابا كنسية ، فاحمر وجهه ليونورا سروراً . فسألها ملبورن : « من هذا ؟ » .

« انه حبيب فرانسيز ، يوسفى أنها ليست فى المنزل .. آه لقد أخبروم عن مكانها ، فذهب ليراها .. ليتها توفق إلى الزواج منه » .  
— « ولم لا ؟ » .

— « إنه لا يستطيع حتى الآن أن يتزوج . ومنذ أن غادرا كستبرى صارت فرانسيز لاتراه إلا غراماً . كان يعمل هنا أول الأمر ، ولكنه الآن قسيس فى كنيسة ( سانت جونز ) فى إيפל على مسافة خمسين ميلا من هنا . وهما متفاهمان ، دون ما تصریح . ولكن بعض أصدقائه يعترضون على زواجه منها نظراً للمهنة التى نتحرف ، وإن كان يدرك سخافة هذا الاعتراض ولا يابى له » .

— « ان زواجنا يساعد على تحقيق أملهما فى الزواج ، ولا يعوقه كما زعمت » .

— « أتظنه يساعد ؟ » .

— « بكل تأكيد . لأنه سيفيك من هذا العمل نهائياً » .

وهكذا هدته الصدفة إلى الطريق الوحيدة للتأثير عليها . فتابع السير



في هذه السبيل . وعرضت مسز فرانكلاند هذا الرأي على ابنتها فوهنت معارضتها . وجعل ملبورن بعد أن ترك مسكنه في أكسبري يسافر بين هذه المدينة وبين لندن ذهابا وحيثه بانتظام حتى تغلب على ممانعتها . . ووافقت على كره منها . . وتزوجا في أقرب كنيسة . وبيع امتياز الاتجار بأدوات الموسيقى والرقص الى شخص آخر ، كان يتوفز للحصول عليه ، وقررت أسرة ملبورن أن تقيم في لندن .

- ٣ -

صار ملبورن رب أسرة في حيه القديم ، وإن لم يكن في شارع القديم . وغدت مسز ملبورن وابنتها من أهل لندن ، ورضيت الابنة الانتقال إلى هذه المدينة لأن الفكرة أعجبت حبيبها . فقد كان أيسر عليه أن يسافر من إيفان مسافة مائه ميل لبراها في لندن حيث لاتفرغ شوانغله ، من أن يسافر خمسين ميلا في الاتجاه المضاد حيث لا يحتاجه شيء غيرها .

هاهم أولاء يوثون المنزل تأثيثا كاملا ، وهو في شارع صغير شهير في الحى الغربى . وكانت واجهة هذا المنزل إلى عهد قريب في لون السناج . ولكن هذا الآن أرييل وتبدى من تحته ، فأدهش السابله ، آجر لامع أصفر وأحمر ، كان قد حجه السناج طيلة نصف قرن .

ورفع الزواج مركز هاتين المرين الاجماعى رفعا يينا . ولكن بعد أن مرت النسوة التي يستعمرها المنقل إلى لندن في أيامه الأولى ، وبعد أن خبا شعورها بأنهما يقيمان في ( مركز الكون ومحور الوجود ) بدأ شيء من الملل يرين على خيأتهما ؛ ملل لم تكونا تحسانه في

كسبرى الحقيرة ، التي كانتا تعرفان ثلاثة أرباع سكانها ؛ معرفة طفيفة على الأقل . لم يفتقد ملبورن زوجته . وما كان له بذلك قبل . ومهما يكن من صلابتها وحدتها نتيجة لسوء معاملته لها أول الأمر ؛ واهماله إياها سنين طويلة ؛ فإن احساسه بتحقيق ما كان يصبو اليه ، من استعادة رضاه عن نفسه ، كان دائماً شيئاً له في نفسه وزن ، يرجح كل ما عسى أن يضايقه منها .

وبعد حوالي شهر من اقامتهم في لندن . رأت الأسرة أن تقضى أسبوعاً في مصيف على شاطئ البحر بجزيرة ( وايت ) . وفي أثناء مقامهم في هذا المصيف ؛ زارهم برسيغال كوب ، وهو الشاب القسيس الذي المعناليه ، ليراهم ؛ وليرى فرانسيز خاصة . ولم تكن خطبتهما حتى ذلك الوقت قد أعلنت رسمياً . غير أنه كان من الواضح أن التفاهم بينهما إذا انتهى الى غير الزواج ، أصاب أحدهما ، على الأقل ، بصدمة بالغة من خيبة الأمل .

ولم تكن فرانسيز فتاة عاطفية ؛ بل لعلها أميل الى التجبر والغلظة . وقد خيت ما عقده والدها عليها من رجاء . ومع ذلك فقد كان يرجو لها كل خير . ويعمل ما فيه صالحها ؛ كما يفعل أخلص الآباء .

قدم مستر كوب الى رئيس الأسرة الجديد ؛ ولبث معهم في الجزيرة يومين أو ثلاثة . وفي آخر أيام زيارته رأوا أن يتنزهوا ساعتين في أحد القوارب التي ترسو هناك في انتظار المستأجرين . وما إن قطعوا من الرحلة شوطاً حتى تبيّنوا جميعاً — عدا القسيس — أن التنزه في أثناء هبوب الرياح لا تلائمهم تمام اللامعة ولكن ما بدمان استمتاع القسيس بالتنزه جعل

الثلاثة الآخرين يتحاملون على أنفسهم ما وسعهم التحامل ، دون ما تبرم أو شكوى ، إلى أن أدرك الشاب ضيقهم وقلقهم ، وأشار بالعودة فورا إلى الشاطيء ، وفي عودتهم جلسوا صامتين متقابلين .

ومرض البحر في مثل هذه الحالة يؤثر في الوجه تأثيرا واضحا ، كما يؤثر فيه التأمل في منتصف الليل ، والأعياء والتعب والخوف . وكثيرا ما يبرز مرض البحر سمات الفرد التي تميزه من بني جنسه ، ويظهر الخصائص المرضية ، فتكشف في الوجوه التي نعرفها جيدا ، ملامح لا عهد لنا بها . تتبدى فيها ظلال من أجدادنا ، الذين طهرهم الثرى ، وطواهم النسيان . فتلج على العين في إصرار ، تلك السمات العائلية ، التي تحجبها في الأحوال العادية ملامحنا ومظاهرنا المكتسبة .

كانت فرانسيز جالسة إلى جانب زوج أمها ، وأمامهما مستر كوب ، فكان من الطبيعي أن يطيل مستر كوب النظر إليها في أثناء العودة الشاقة إلى الشاطيء . وكان يبتسم لها في خنوء أول الأمر . ولكن لما أبيض وجه الرجل النصف وأبيض وجه ابنته ، وتفرقت حمرة وجهها ففدت بقعا حمراء صغيرة ، وتحولت استدارة ملامحها الغضة عن استوائها المألوف الهادىء وصارت خطوطا أصيلة ، أخذت الدهشة تتولاه تدريجا ، وهو يستبين هذا التشابه بين اثنين في حالة الأعياء ، ليس بينهما أى شبه في حالة الراحة . هذا التشابه العجيب أفزعه ، واستحوذ على ذهنه ، ولم يستطع له تأويلا ، فخار في أمره ، وفاته أن يبتسم لفرانسيز ، وأن يمسك يدها حينما بلغا الشاطيء . ولبث جالسا بضع لحظات في ذهول .

وما لبثت بشرتاها أن استعادتا لونهما المألوف وهما في طريقهما إلى المنزل ، كما عادت اليهما استدارة وجهيهما ، واختفت وجوه الشبه واحدا في إثر واحد وعاد الخلاف المألوف بين الجنسين والسنين . فكأنما قد رفع في أثناء الرحلة قناع سحري ، فتبدت برهة من الزمن قصة من قصص الماضي . فقال لها عرضا في المساء : « هل زوج أمك من أبناء عمها يا عزيزتي فرانسيز؟ »

— « كلا . لا قرابة بينهما . إنما هو صديق قديم لها . كيف خطر لك ذلك ؟ »

لم يجب ، وسافر في الصباح عائدا إلى أعماله في ( إيغل ) . وكان ( كوب ) شابا طيبا مستقيما ، وكان مع ذلك ذكيا أزيبا ، فما إن عاد إلى حجراته المهادنة في شارع ( سانت بيتر ) بايغل ، حتى أخذ يقلب في ذهنه ، والقلق يساوره ، هذا الذي تبدى له في أثناء الرحلة . فاذا القصة تتكشف له على حقيقتها ، وإذا به يشعر لأول مرة أنه في موقف لا يطمئن إليه .

فهو قد قابل السيدة وابنتها في اكسبري بوصفهما من سكان الابرشيه ، واستهواه جمال فرانسيز ، ومضى بعيدا في طريق خطبتها ، وإن لم يتخذ في شأنها قرارا حاسما لأنه لا يستطيع الزواج في هذه المرحلة من حياته . أما الآن فهو يرى أن ماضي الأسرة تكتنفه الأسرار ، وليس من رأيه أن يتزوج من أسرة يكتنفها سر من هذا الطراز الذي ظنه . . وهكذا ظل حائرا . . بين

حرصه على ( فرانسيز ) وكرهته الطبيعية لمصاهرة أسرة لا يجتمل ماضيها أدق بحث واستقصاء .

لو أنه كان عاشقاً مستهماً من الطراز القديم ، لما أقام لهذه الشكوك وزناً . ولكنه رغم اشتغاله في الكنيسة ، كان شديد التألق في حبه ، متوجساً إلى حد ظاهر من عوامل الانحلال السائدة في عصره . فتأخر في الكتابة إلى فرانسيز فترة من الزمن ، لأنه لا يستطيع أن يصطنع الحماسة ، حين تشغله وساوس من هذا النوع .

وفي غضون ذلك كانت أسرة ملبورن قد عادت إلى لندن ، وأخذ القلق يساور ( فرانسيز ) .

وفي حديث لها مع أمها عن مستر كوب ، أشارت في براءة إلى سؤاله العجيب : هل أمها وزوج أمها من أولاد الأعمام ؟ . فطلبت إليها مسز ملبورن أن تكرر هذه العبارة ففعلت . ثم تداعت في ذهنها النافذ ، شواهد كثيرة ، جمعت بعضها إلى بعض . . فاحمر وجهها وسألت أمها إذا كان ما فهمته حقاً ، فاعترفت الأم بأنه الحق .

وبدت في وجه الفتاة حمرة الدل بعد حمرة الخجل : كيف يعقل أن تسيباً مستقيماً ، نافذ النظر مثل مستر ( كوب ) ، يطلب يدها بعد أن كشف سر مولدها ؟ ووضعت كفيها على عينيها في يأس صامت .

ولما حضر مستر ملبورن كظمت المرأتان غيظهما أول الأمر ، ثم لم يلبث شعورهما المكبوت أن تغلب عليهما تدريجاً . فلما نام في كرسيه بعد العشاء

انفجر غضب مسز ملبورن ، وظاهرتها فرانسير الجريحة في تعنيف الرجل النجس ، الذى ألقى ظله اللعين على يوم العرس فأحاله مأتما .

— « لماذا ضغفت إلى هذا الحد يا أماه ، حتى سمحت لعدوك وأصل بلائك ، أن يدخل بيتك ، فضلا عن أن يتزوجك ، بعد هذا الزمن الطويل . لو أنك استشرتى لا استطعت أن أقدم رأيا خيرا من هذا . لكن لا أظن أن لى حقا فى تعنيفه ، مهما بلغ شعورى نحوه من مرارة وحقد ، وإن كان قد حطم حياتى إلى الأبد »

— « لقد ثبتُّ على موقف الرفض يا فرنسيس . ورأيت من الخطأ أن أقول شيئا لرجل كان أشبه بلعنة القدر صبت على . ولكنه لم يستمع . وجعل يضرب على وتر ضميره وضميرى ، حتى ضجرت وقلت ، وهكذا آخر جنا من بلدة هادئة كنا فيها معروفين محترمين . كم أخطأت التقدير ! والأسفاه على سعادة تلك الأيام . . كان لنا كثير من الأصدقاء فى مثل مركزنا ، لا يطلبون منا أكثر مما نطلب منهم . أما هنا ، حيث ملايين البشر فلا نعرف أحدا ولا علاقة لنا بأحد . قال لنا إن مجتمع لندن رائع باهر . . وأتانا سنشعر أننا انتقلنا الى عالم جديد . ربما أحس ذلك من نشأ فى هذا المجتمع . . أما نحن فما لنا وله ، أننا امرأتان وحيدتان ، نرى بهرج المدينة يمرق من أمامنا ولا صلة لنا به ، . . آه . . لشد ما كنت بلهاء »

لم يكن ملبورن حينذاك مستغرقا فى النوم ، بحيث لا يسمع هذه النقذات التى كادت تبلغ حد اللعن والسباب . فلم يشعر بالأمن والهدوء فى المنزل ، وعاود التردد على النادى بعد أن كاد ينقطع عنه نهائيا منذ عودته .

إلى ليونورا . ولكن أشباح متاعبه المنزلية لا حفته هناك أيضا ، وأفسدت عليه راحته .

فلم يستطع — كما كان يفعل — أن يطمئن في كرسيه المختار ، وأن يمسك بجريدة المساء ، يتصفحها في راحة العزب ؛ الذي يحس أنه حينما ذهب ، انتقل عالمه معه . إن دنياه الآن لم تعد كرية مركزها هو ، بل يعضاوية لها . مركزان ، ليس هو أعظمهما أهمية .

ظل أسقف إيفل متباعدا ، مخيبا بهذا التباعد آمال فرانسير ، فهو لا يريد أن يستبق الحوادث . وقد احتمل ملبورن تعنيف زوجته وابنته في سكون يكاد يكون تاما . غير أن الهموم والمتاعب أخذت تشتمل عليه تدريجا ، وكأنما يتمخض ذهنه عن فكرة جديدة . فإن صيحتهما المريعة أنه حطمهما قد نفذت إلى نفسه وألهبتها ، فأقترح ذات يوم في هدوء أن يعودوا إلى الريف . . . لا إلى اكسبري بالذات بل — إذا شاءتا — إلى دار عمدة قديمة ، وجدها معروضة للايجار ، على بعد ميل واحد من ( إيفل ) ، بلدة مستر كوب .

فأصابتها دهشة . ورغم أنهما تريانه مصدر شقوتيهما وتعاستهما فقد كانتا مهياتين لقبول هذا الاقتراح . قالت مسز ملبورن : « ولو أتى أخشى أن ينتهي الأمر بسؤال صريح عن الماضي يجابهك به مستر كوب ، فتضطر إلى إخباره ، ويتحطم كل ما أعلقه على فرانسير من آمال . إنها تريد كل يوم شباها بك ، وعلى الأخص حين تكون غاضبة . . . وسيرا كما الناس معا ويلحظون الشبه . . . ولا أدري ماذا يترتب على ذلك »

— « لا أظنهم سيرونا معا » كذلك كان جوابه . ولم يدخل معها في جدل حين أصرت على أن هذا مستحيل .

وعلى ذلك قرروا الانتقال إلى المنزل الريفى ، وإخلاء منزلهم فى لندن . وبدأت عملية الإخلاء يقوم بها النجارون والحوذيون ، حتى نقلت كل قطع الأثاث كما نقل الخدم . وفى أثناء ذلك أرسل زوجته وابنته إلى الفندق ، وذهب هو مرتين أو ثلاثا إلى إيقل ، ليشرف على إعداد المنزل الجديد وتأثيثه ، ولما فرغ من ذلك عاد اليهما فى لندن ، وأخبرهما أن المنزل قد أعد لاستقبالهما ، وما عليهما إلا السفر . ورافقهما ومتاعهما الخاص إلى المحطة ولم يزد ، إذ كان عليه — كما قال — أن يلبث قليلا فى المدينة لينجز عملا مع أحد المحامين .. وذهبتا وحدهما ، تشاهما ريبية وحسرة ، لأن كوب الحبيب العزيز لم يبد له أثر .

قالت مسز ملبورن لابنتها فى القطار : « ليتنا نعيش هنا وحدنا ، لا يتطفل أحد علينا فيثير القيل والقال ! ولكن ما الحيلة ؟ » .

كان المنزل بديع المنظر ، صغير الحجم ، يقع فى أيكة من الدردار ، فراقهما منظره وموقفه . وكان أول زائر لهما هو المستر ( كوب ) وقد سر لاقامتتهما على مقربة منه . وإن لم يصرح بذلك . وتمنى لو عاش على هذا الفرار الرائع . على أنه لم يستعد روح العاشق المدله ، فأسرت مسز ملبورن إلى ابنتها « يا عجبا ! إن أباك قد أفسد كل شيء » .

ولكن لم يمض ثلاثة أيام حتى جاءها خطاب من زوجها أدهشها كل الدهشة . فهو مرسل من بولونيا ، ويبدأ بشرح طويل للأمر الذى شغله



منذ برحتا لندن ، وهو تسوية أيلولة ثروته . وأهم ما يعيننا في ذلك أن مسز ملبورن وجدت نفسها مالكة مطلقة التصرف في ثروة لا بأس بها ، أودعت باسمها . وخصص لفرانسيث مبلغ ضخيم تتقاضى ريعه مدى الحياة ، ثم يوزع رأس المال على أولادها إذا كان لها أولاد . أما باقى الخطاب فكان كما يلي :

« علمتني الأيام أن هناك نوعا من الإهمال في أداء الواجب لا تستطيع الحلول المتأخرة أن تفض مشاكلة ، أو تمحو آثاره . فسيئاتنا التي اقترفناها في الماضي ، لا تظل قابعة فيه تنتظر الإصلاح ، بل هي أشبه بنبات متسلق ينتشر ويضرب بجذوره الجديدة في الأرض ، حتى إذا قطعت الساق الأصيله لم يتأثر النبات ولم يمُت . لقد أخطأت حين بحثت عنك وأنا أعترف بذلك .. وإذا كان لمثل هذه الحالات من علاج ، فليس هو الزواج على أية حال .. وخيرلك ولى ألا ترينى بعد اليوم .. وخيرلك ألا تبخى عنى ، فأغلب الظن أنك لن تستطعى العثور على .. ولديكما من المال ما يكفيكما .. واللقاء قد يضرنا أكثر مما ينفعنا »

وصفوة القول أن ملبورن اختفى من ذلك اليوم . على أننا لو بحثنا واستقصينا ، لعلمنا أن رجلا انجليزيا لم يذكر اسم ملبورن ، نزل في بروكسل بعد فترة وجيزة من إنتقال أسرة ملبورن إلى إينفل . وهو رجل لورآته مسز ملبورن لعرفته .. وفي عصر يوم في الصيف التالى كان هذا السيد يطالع صحيفة انجليزية ، فوقع بصره على نبأ زواج مسز فرانسيث فرانكلاند .. أو مسز كوب .. فقد صارت حرم القسيس الموقر مستر كوب

فهتف السيد : « شكرا لله »

غير أن ارتياحه الوقتي لم يكن ينطوي على شيء من السعادة . وكما كان فيما مضى مهموما مثقل القلب بضمير يؤنبه ، فقد صار الآن مكدودا مرهقا بفكرة طاغية تلازمه ، هي عين الفكرة التي حطمت ( أنتيجوني )<sup>١</sup> . فإن إصراره على أداء فريضة كريمة ، قد أورثه انحلالا في الإرادة ، وورخاوة في العزم .

فكان في أغلب الأحيان يعتمد على خادم في عودته من النادي ، لأنه يجاوز القصد في الشراب ، فصار لا يستطيع أن يُعنى بنفسه . على أنه كان لا يؤدي أحدا ، ولا يكاد ينبس بكلمة حين يعاقر الخمر .

---

(١) بطلة نبياة من أبطال الأساطير اليونانية ، قتل الملك أخاها ، وأمر ألا يُدفن ، فخالفت أمره ودفنته ، فأمرها الملك في قبر ، ولم يصغ إلى توسلات ابنه ، وكان خطيها . . . وفي القبر أظلمت حياتها فاتحرت .

# مأساة امدين

تصاعدت إلى النافذة صيحات صبيان القرية ، تمازجها ضحكات  
الجالسين عند باب الفندق ، غير أن ولذى هالبرو ظلا يدرسان . كانا  
يجلسان في حجرة نوم في منزل أبيهما صانع الطواحين ، مشغولين بقراءة  
كتب إغريقية ولاتينية ، لا عن شغف خيالي يحفزهم إلى قراءة قصص  
المعارك والملاحم لهوميروس ، أو رحلة أسطول الأرجو ، أو مأساة الأسرة  
الطيية . بل كانا يكدهان في دراسة النسخة الإغريقية للكتاب  
القدس ، منهمكين في قراءة فصل معقد الأسلوب عن الرسالة المقدسة  
إلى العبرانيين .

كانت شمس الصيف في غيوبها ترسل أشعتها إلى السقف الواطيء  
المائل ، وظلال أشجار الصفصاف الضخمة تميذ وتتشابك على الحائط ، كأنها  
جيش أسطوري في مناورة ، حين تسرب من النافذة التي تصاعدت إليها  
تلك الأصوات البعيدة ، صوت قريب ، هو صوت أختها . وكانت صبية  
جميلة في الرابعة عشرة ، واقفة في الفناء الأرضي .

— « أستطيع أن أرى قمتي رأسيك . ما فائدة البقاء فوق ؟ لا أريد  
أن تلعب مع أولاد الشارع ، ولكني أرجو كما أن تنزلا لتلعبا معي » .

فنظرا إليها نظرتهما إلى شخص غير جدير بالمناقشة ، وصرفاها بكلمة  
تافهة ، فانطلقت مغضبة .. وسرعان ما سمعت خطى كليلة ثقيلة في جوار  
المنزل ، فاعتدل أحد الأخوين في مجلسه ، وهمس لأخيه وعينه إلى النافذة

« ينجيل إلى أنى أسمعه مقبلاً » وجاوز المنعطف رجل يترنح في مشيته ، يرتدى ثياباً سنجابية فاتحة اللون ، من طراز عتيق ، يلبسه — عادةً — صناع الريف . فاحمر وجهه أكبرهما خجلاً ، ونهض عن كتبه ، ثم هبط الدرج ، بينما ظل الأصغر جالساً في مكانه ، حتى عاد أخوه بعد بضع دقائق .

— « هل رأته روزاً ؟ »

— « كلا »

— « ولا غيرها ؟ »

— « ولا غيرها »

— « وماذا فعلتَ به ؟ »

« اقتدته إلى حظيرة التبغ بشيء من الجهد ، ونام . أظن أن سبب غيابه . . هو أنه لم يُمد أى حجر للطحان ( كنش ) . ولا تزال العجلة الكبرى للجهاز نشر الخشب معطلة في انتظار ألواح جديدة . وحتى فقراء الناس لا يجردون عجلات لعر بانهم »

فقال الأصغر قافلاً كتاب (دونيجان) بصوت مسموع : « وما فائدة الانكباب على هذا ؟ آه ! لو أننا استطعنا أن نستبقى مبلغ التسعمائة جنيه التي تركتها أى لأفدنا منها فائدة كبرى . كم كانت حكيمة في تقدير المبلغ اللازم ! قدرت لكل منا أربعائة وخمسين . ولا شك أننا كنا نستطيع — مع الاقتصاد — أن نحقق آمالنا بهذا المبلغ » .

كانت خسارة هذا المبلغ قذى عينيها ، وشجى حلقهما . فهو مبلغ جمعته أهمها بجهد جهيد ، وإيثار شديد ، بأن أضافت إلى ماورثته عفواً ، كل

ما كان يصل إلى يديها بين الفينة والفينة من مال يسير .  
وكانت تعول على هذه الذخيرة ، في تحقيق أمنيته العزيزة ، فتلحق  
ولديها جوشيا وكورنيليوس باحدى الجامعات ، فقد علمت أن مبلغاً يتراوح  
بين أربعائة وأربعمائة وخمسين جنيتها يكفي كل واحد منهما ليتم مراحل  
تعليمه ، إذا سار على سنة الاقتصاد ، وهما في رأيا قادران على اتباع هذه  
السنة . ولكنها ماتت منذ عام أو عامين ، بعد أن أضناها الجهاد لتحقيق  
هذه الأمنية . . وآل المال — في غير تحفظ — إلى يديهما فبدده كله  
تقريباً . وبفقدته ضاعت الفرص ، وانهارت الآمال في أن يحصل كل من  
ولديها على درجة جامعية .

قال جوشيا أكبر الأخوين : «إني كلما فكرت في هذا الموضوع طار  
لبي . وهما نحن أولاء نكد ونكدح على طريقتنا الخرقاء . وأقصى ما نأمله ،  
أن نشغل عدة سنوات مدرسين في مدارس أهلية . وقد نقبل بعدها في  
كلية لا هويتيه ، ونعين قسيسين تافهين .. بترخيص » .  
فأثر غصبة في أخيه الأصغر فارتسمت على محيائه علامات حزن هين وقال  
موسياً في خفوت : « إننا نستطيع أن نبشر بما جاء في الانجيل بغير قلنسوة  
كهنوتية ، كما نستطيع ذلك وهي على رأسنا » . فرد عليه جوشيا وقد مط  
شفتيه قليلاً : « ولكننا لا نستطيع أن نرقى » .

— « دعنا نبذل خير ما نستطيع من جهد ، ونكد وندأب » .  
فصنعت الآخر . وانحني الاخوان المكتئبان على الكتب مرة أخرى .  
وكان مبعث كل هذه الكآبة هو صانع الطواحين — هالبرو — الذي

يشخر الآن في الحظيرة .. كان في أول أمره صانعاً ناجحاً رغم مزاجه المستهتر. ثم تمكنت منه عادة الادمان على شراب شديد الأثر، فتعطل عمله منذ ذلك الوقت إلى درجة مؤسفة . وانصرف أصحاب الطواحين عنه إلى غيره لصنع عجالاتهم .. فحطل نصف آلات المصنع بعد أن كانت تشتغل جميعاً . وصار الآن يجد مشقة في لقاء عماله آخر الأسبوع . ومع أنه خفض عددهم ، فإن ما لديه من عمل لا يكاد يكفي من بقي من العمال .

وزاد ميل الشمس نحو المغرب ، ثم غربت ، وسكنت أصوات صبيان القرية ، وغشى الظلام حجرة الطالبين . وكان الكون خارج المنزل يستروح أنسام السلام . دون أن يدري أحد شيئاً عن الآمال الفتية المضطربة التي يخفق بها صدران ، تضمهما حوائط يغشاها نبات متسلق ، في منزل صانع الطواحين .

وبعد أشهر قليلة غادر الاخوان القرية التي شهدت مولدهما ليطلبوا العلم في مدرسة المعلمين . وكانا قبل ذلك قد ألحقا أختهما الصغيرة روزا بمدرسة راقية في أحد المصايف الحديثة ، دون احتفال بما يكلفهما ذلك من مال .

— ٢ —

ترأى رجل في زى نصف كنسى ، يمشى في الطريق المؤدية من محطة سكة الحديد إلى داخل مدينة في الأقاليم . وكان في أثناء سيره يقرأ في حماسة وإصرار ، ولا ينقل بصره عن الكتاب ، إلا ليستوثق بين الفينة والفينة من أنه يسير في الطريق الصحيح ، ويتفادى أن يصطدم بغيره من السابلة .

وكان يستطيع من يراه في تلك الأثناء ممن عرف الطالبين في منزل صانع الطواحين ، أن يدرك أن هذا القارئ المتجول إن هو إلا واحد منهما ، جوشيا هالبرو .

لقد تبدلت بالقوة الساذجة التي كان ينطق بها وجه الشاب ، سياء التبصر النشط في وجه الرجل . وكانت أخلاقه تظهر على ملامحه بالتدرج فيمكنك أن تقرأ في قسماته أنه يرنو إلى مستقبله باهتمام عميق ، يزيد عمقاً على الأيام ، وأنه يصغى لنداء المستقبل ، ولا يكاد ينصت إلى صوت آخر . كانت آماله حارة مضطربة وإن ظل زمامها بيده . وكانت تحتشد في ذهنه أسس مشروعات لا يُحتمل — لفرط كثرتها — أن يكتب لها التوفيق . وهو يعمد إلى إبقاء آماله البعيدة في ضوء أغبش غير ساطع مخافة أن يُشغل بها عن غيرها .

كانت ظروفه حتى الآن تشجع على هذه الآمال . فما كاد يحصل على وظيفة مدرس ، حتى تعرف برئيس أساقفة أبرشية بعيدة عن موطنه الأصلي ، فرأى فيه هذا الرئيس شاباً مأمول الغد ، فشمله برعايته وعطفه . . وها هو ذا الآن يقيم بمدينة فيها أسقفية رئيسية ، ويقضى عامه الثاني بالكلية اللاهوتية ، وعما قليل سيصبح قسيساً .

دخل البلدة ، ثم دلف إلى طريق خلفي ، ثم إلى فناء ، وهو لا يزال يقرأ ، حتى بلغ مدخل الفناء فقرأ على قوس ذلك المدخل (المدرسة الوطنية) وكانت أعمدة هذا القوس متآكلة تآكلاً لا يقدر على مثله إلا التلاميذ وأمواج المحيط . وبران ما وجد صاحبنا نفسه في وسط ضوضاء التلاميذ

كان أخوه (كورنيليوس) يشتغل مدرساً بهذه المدرسة ، وها هو ذا يضع من يده مشيراً كان يشير به إلى رءوس أوريا ، ثم يتقدم للقاء أخيه ، فيهمس أحد تلاميذ السنة السادسة :

— « هذا أخوه (جوشيا) . . الذي سيصبح قسيساً . . وهو الآن بالكلية » .

ويقول آخر : « كورنى سيصير قسيساً هو الآخر عند ما يدخر مالا كافياً » .

وبعد أن يجتنب الأصغر أخاه ، ولم يكن قد رآه منذ بضعة شهور ، يأخذ في شرح طريقته في تدريس الجغرافيا . ولكن هالبرو الأكبر لم يطرب لهذا الحديث ، فسأل أخاه : « ولكن كيف تسير في دراستك الخاصة ؟ هل تسلمت الكتب التي أرسلتها إليك ؟ »

وكان كورنيليوس قد تسلمها ، فقص على أخيه ما فعل بها .

— « احرص على الاستذكار في الصباح متى تستيقظ من نومك ؟ »

فأجاب الأصغر : « في الساعة الخامسة والنصف » .

— « أظن أن الاستيقاظ في الساعة الرابعة والنصف ليس تيكبيراً

مرهقاً في هذا الوقت من السنة . إنه ليس كالصباح وقت لفهم العلم وهضمه .

أنا كلما مللت القراءة — حتى قراءة القصص — أُلجأ إلى الترجمة ، ولأدري

علة ذلك . قد تكون عملاً آلياً شيئاً ما ، لكنك يا كورنيليوس متخلف

من غير شك . ولا يزال أمامك أن تبذل جهداً مضمياً في الدراسة إذا شئت

أن تغادر هذا المكان في عيد الميلاد التالي » .



— « هذا صحيح ولا شك » .

— « يجب أن نجس نبض كبير الأساقفة قريبا ، أنا واثق أنه سيقدر قبولك دون مشقة عندما يعرف كل شيء . وخير طريقة في رأى مساعد العميد ، وهو رئيس كليتنا ، أن تأتي إلى هناك حين يحضر كبير الأساقفة الامتحان . وسيهيء لك مساعد العميد فرصة للقائه ، فاحرص على أن تترك أثراً طيباً في نفسه . لقد دلتني تجاربي على أن هذا الأثر يكاد يتوقف عليه كل شيء . وما عداه لغو . وإذا لم توفق إلى أن تكون قسيساً فلا أقل من أن توفق أن تكون شماساً » .

لبث الأصغر يفكر ، ثم سأل أخاه : « هل وصلتك خطابات من روزا ) قريبا ؟ لقد جاءني خطاب منها هذا الصباح » .

— « نعم إن هذه المدللة الصغيرة تكتب كثيراً جداً . إنها تحن إلى وطنها وإن كانت ( بروكسل ) مدينة شائقة من غير شك . ولكن يجب عليها أن تستفيد من مقامها هناك أكبر فائدة ممكنة . لقد ظننت أن عاما يكفيها بعد أن آتمت الدراسة في مدرستها الراقية في ( ساند برن ) غير أنني رأيت أن أمنحها عامين ، تفيد خلالها من هذه المدرسة . ولا عبرة بالتفقات مهما تبلغ » .

بدأ وجهها الجافان يلينان ويهشان شيئا ما حالما انتقل الحديث إلى أختها التي كانا يؤثرانها على نفسيهما .

— « ولكن أنى لنا بالمال يا جوشيا ؟ »

نظر جوشيا إليه ووجد بعض التلاميذ يقفون قريبا منه ، فابتعد بأخيه

بضع خطوات ثم قال : « لقد حصلت على المال ، اقترضته بربح خمسة في المائة من فلاح كان يزرع الضيعة المجاورة لحقلنا ، وأنت تذكره طبعاً » .  
— « وعن السداد ؟ » .

— « سأسده تدريجاً من راتبى . يا كورنيليوس ، لا فائدة من أنصاف الحلول . فأختنا تبشر بأن تكون فتاة غاية في الجاذبية ، إذا فاتها أن تكون غاية في الجمال ، وهذا رأيي من سنين . فإن لم يكن وجهها وحده ثروة فإن وجهها وعقلها معا سيكونان ثروة إذا صح ظنى وتقديرى . ومن الضروري لتحقيق آمالها أن تصبح امرأة مثقفة مهذبة بكل جوانبها . وهذا أمر لا بد منه لكنى نسير صعوداً إلى العلا . وستكون كما نرجوها وسترى . أنى أفضل أن أجوع على أن أخرجها من المدرسة » .

جملاً يجيلان الطرف فى المدرسة التى يقفان فيها . وكان منظرها يبدو فى عيني كورنيليوس طبيعياً وعادياً . أما فى عيني جوشيا ذى العواطف المحدودة ، القادم من مكان أرقى من هذا المكان ، فقد كان المنظر لا يبهج الخاطر ، منظر لشيء تركه وراء ظهره من زمن . فقال لأخيه :  
« سأكون سعيداً حين تغادر هذا المكان ، وأراك على المنبر تلتقى موعظتك الأولى » .

— « ويمكنك أن تقول أيضاً وترانى فى معاشى الفخم ، بعد أن تكون أنت قد سبقت إلى بلوغ هذه الغاية »

فأجابه فى حرارة : « آه .. لا تستهن بالكنيسة ، فإن فيها — كما سترى — مجالا طيبيا لجهود أى رجل نشيط .. إيقاف تيارات الإلحاد ،

وشرح الآراء الجديدة في الموضوعات القديمة ، وإحلال الإيمان بروح الدين محل الإيمان بنصوصه الحرفية « ثم استغرق في أحلام عن مستقبله ، محاولاً أن يقنع نفسه بأن الذي يحفزُهُ إلى العمل والأمل إنما هو التمسك بالمتسيحية لا لأبهة المنصب . . . لقد أخذ العقيدة على عاتقه ، فهو مستعد أن يذود عنها بالناب والظفر . . . لا غرض له من ذلك إلا أن ينال ما ينال المجاهدون الأبرار من شرف ومجد .

وقال كورنيليوس : « في رأيي أن الكنيسة إذا خرجت عن جهودها وسأيرت الزمن ، بقيت . . . وإلا . . . تصور أني اشتريت ذات يوم من إحدى المكتبات نسخة من كتاب البراهين لبالي ، أحسن طبعه ، بهوامش عريضة وغلاف جيد بتسعة بنسات ، فاعتقدت حينئذ أن المتسيحية لا بد في محنة » .

فأجاب الآخر وقد كاد يغضب « كلا . كلا . إنما يدل ذلك على أن مثل هذا الدفاع عن الدين صار لا داعي له ، لأن عيون الناس تستطيع من غير هذه الحجج المنتحلة أن ترى الحق من تلقاء نفسها . . . فضلاً عن ذلك ، فقد تخصصنا في الدين المتسيحي ، ويجب أن نستمسك به مهما يكن . أنا الآن اقرأ ( مكتبة الآباء لبوسي ) »

— « يتصحيح كبير أساقفة يا جوشيا قبل أن تتم قراءتها » .  
فأجاب أخوه وهو يهز رأسه في مرارة وألم ! « آه . . . ربما بلغت هذه المرتبة . . . ربما . . . ولكن كيف السبيل إلى درجة جامعية . وكيف أصبح أسقفًا كبيراً بلا مؤهلات كهذه ؟ إن ( تلوتسون ) كبير الأساقفة كان أبوه

قائماً غير أنه تخرج في كلية (كلير) أما أنا وأنت فلم يكتب لنا شرف التخرج في أكسفورد أو كامبردج . يا إلهي طالما فكرت فيما كان ينبغي أن نكون ... وفي هذا الأمل الباسم الذي قضى عليه ذلك الرجل اللعين الحقير « كفى كفى . فأنا أشعر بذلك كما تشعر أنت . وقد تجسمت في نفسي هذه الفكرة مفرغه أليمه ، منذ عهد قريب . . . فلولاه لحصلت أنت على درجتك الجامعية منذ زمن طويل ، وربما كنت حصلت على درجة الزمالة ولكنت أنا الآن في طريقى إلى الدرجة الجامعية »

فقال الآخر : « دعنا من هذا . . . يجب أن نبذل خيراً ما نستطيع من جهد »

نظراً محزونين من النافذة من خلال زجاج يغشاه التراب . وكانت النافذة عالية ، لا ترى من خلالها إلا السماء . ثم تبدى تدريجاً ألمهما الدفين . ففي وسط هذا السكون همس كورنيليوس قائلاً : « لقد زارنى » . فضاقت الحيوية من وجه جوشيا ، وبدا وجهها جديداً لا روح فيه . وسأل لتوة « متى كان ذلك ؟ »

— « فى الأسبوع الماضى »

« وكيف وصل الى هنا وقطع هذه الأميال الطويلة ؟ »

— « أتى بالقطار — جاء يطلب مالا »

— « آه »

— « ويقول إنه سيزورك »

فأوماً جوشيا إيماءة تنبئ بياسه واستسلامه . لقد قضى موضوع

الحديث على نشاطه وحيويته بقية هذا اليوم . وعاد في المساء بعد أن شيعه كورنيليوس إلى المحطة . ولكنه لم يقرأ في القطار الذي أقله إلى الكلية كما كان يقرأ في القطار الذي أقله منها : فقد ناء بهذا البلاء المزمّن ، وضاق بهذه البقعة الدنسة التي تشوه صفحة حياته . وفي اليوم التالي جلس مع زملائه في المكان المخصص للمرتلين ، فحجبت ذكريات هذا البلاء عن عينه ذلك اللون الأرجواني البهيج الذي تراءى على الأرض ، منبعثاً من خلال الزجاج الملون .

وبعد الظهر كان كل شيء هادئاً في الحقول المجاورة للكاتيدرائية ، شأن هذه الحقول فيما بين صلوات الأحد . وكان لا يسمع إلا نعيق الغربان المستمر . وكان جوشيا هالبرو قد تناول غداءه الزهيد ، وذهب إلى المكتبة ووقف بها بضع دقائق ، ينظر من خلال النافذة الواسعة المطلة على الحقول . فرأى رجلاً يمتاز الحقول في بطاء ، يرتدى سترة من قماش خشن ، وقبعة بيضاء مهذمة ، مجعدة الوبر . وفي ذراعه امرأة عجزية طويلة ، تلبس قرطاً طويلاً من النحاس . وكان الرجل ينظر نظرة هازلة إلى الواجهة القريبة للكنيسة ، فلمح فيه هالبرو وجه أبيه وملاحظه . أما المرأة فلم يكن يدري من تكون . وما يكاد جوشيا يتعرف على القادم حتى يرى مساعد العميد ، وهو في الوقت نفسه رئيس الكلية الذي يهابه جوشيا أكثر مما يهاب كبير الأساقفة ، وكان يمتاز الباب الخارجى إلى ممر في الحقول ، فاعترضه الرجل والمرأة . ولشد ما فزع جوشيا حيناً رأى أباه يلتفت إلى مساعد العميد ويوجه إليه الخطاب . لم يدري ما جرى بينهما من حديث ، ولكنه رأى جسمه يتصبب عرقاً

بارداً — أن أباه قد وضع يده في ثقة على كتف مساعد العميد ، فحنل هذه وانصرف عنه مسرعاً ، فمّ ذلك عن شعوره . أما المرأة فيبدو أنها لم تقل شيئاً . وما إن ابتعد مساعد العميد ، حتى تابع الاثنان سيرهما نحو باب الكلية الخارجى .

فهرع هالبرو إلى الدهليز ، ومرق من باب جانبي ، ليقابلهما قبل أن يستطيعا بلوغ المدخل الأمامى ، الذى كانا يقصدان إليه وأدركهما عند غيضة من شجر الغار .

— « هذ هو الشاب عينه . ما شاء الله يا جوشيا ! ألا ترسل لأبيك شيئاً من المال فى وقت كهذا ، وتدعه يسافر هذه الأميال الطويلة ليلتاك ؟ » .  
— « قبل كل شىء ... من هذه ؟ » .

كذلك سأله جوشيا فى وقار شاحب ، مشيراً إلى المرأة المرححة ذات القرط الطويل .

— « السيدة ؟ إنها زوجة أبيك ألا تعلم أنى تزوجت ؟ لقد أعادتنى من السوق إلى المنزل ذات مساء ، فتفاهمنا . . أليس كذلك يا سلتار ؟ » .  
فقالت المرأة فى بسمة بلهاء : « أى نعم اتفقنا . . طبعاً » .  
ثم سأل صانع الطواحين ابنه « ما هذا المبنى الذى تعيشون فيه ؟ يبدو أنه إصلاحية » .

وكان جوشيا يصفى إليهما ، وقد شرده لثته ، وعلت ملاحظه مشاعر اليأس والاستسلام . وأوشك — وقلبه يتفطر — أن يسألها إن كانا فى حاجة إلى شىء عاجل ، أو وجبة طعام . ولكن أباه سبقه بقوله : « لقد

جئنا نطلب إليك أن تصحبنا ، وتشرب معنا نخب سعادتنا في حانة ( كوك آند بوتل ) التي ستقضى بها اليوم ، ثم تتابع السفر لزيارة أصدقاء السيدة في سوق ( بنجار ) ، حيث يضربون خيامهم مدة ليلة أو ليلتين . لا أستطيع أن أشهد بجودة أطعمة الحانة ، ولكن بها أجود صنف من مشروب ( أولد توم ) ذقته من سنين طويلة .

- « متشكر . ولكنى لا أشرب . وقد تعديت » هكذا كان جواب جوشيا الذي كان يستطيع أن يؤمن بشهادة أبيه في جودة الخمر من راحة أنفاسه . ثم قال : « إننا هنا مضطرون أن نلتزم حد التزمّت ، ولا يسعنى أن أرى في تلك الحانة الآن » .

- « إذن لا تأت جنابك . ولكن هذا لا يمنعك أن تتبرع بشيء لمن يسعهم أن يبروا هناك ؟ » .

فقال الابن جازماً : « لن أدفع بنساً واحداً . لقد أخذت ما يكفي » .  
- « أشكرك على لا شيء . على فكره ، من هذا الأسقف ذو الساقين النحيلتين المغزليتين ، والحذاء المزموم ، الذي مربنا الآن ؟ يبدو أنه خاف أن نسمّه » وأخبره جوشيا في هدوء انه ناظر كليته وسأله في تحفظ : « هل أخبرته باسم من تبحث عنه ؟ »

لم يجب أبوه ، بل انصرف مع زوجته الفجرية المتسولة - إن كان صحيحاً أنها زوجته - وسارا في اتجاه الشارع العام ، وعاد جوشيا هالبرو إلى المكتبة . ورغم ما جيل عليه من صرامة وعزم ، فقد بلغ به الهوان أن أذرف دمعاً سخيناً فوق الكتب . واشتد به الكرب هذا المساء ، إلى درجة لا تقاس

اليها تعاسة ذلك الكريه الممقوت ، صانع الطواحين . « وفي الليل جلس يكتب خطاباً إلى أخيه ، يصف فيه ما حدث ، ويفرق في تصوير هذا العار الجديد الذي جلبه أبوه بزواجه من تلك الأفافة الفجرية . ثم اقترح طريقة للحصول على مال يكفي لإقناع أبنه وزوجته بالمجرة إلى كندا قائلاً : هذا هو الحل الوحيد أما بقاء الحال على هذا المنوال ، فأمر يطير اللب ويذهب بالعقل . قد لا يعيب النقاش أو المثال أو الموسيقى أو الكاتب ، أنه نشأ بين طعام الناس وأشراهم ، لأنه يهز مشاعر الناس هزاً ، وقد يظني صغر المنبت عليه رواء شعرياً خيالياً ، يستدر العطف ويثير الخيال . أما رجل الدين في كنيسة إنجلترا ، فله شأن آخر يا كورنيليوس ، فضعة الأصل تودي بكل آماله . فأنت لكي تنجح في الكنيسة ، يجب أن يؤمن الناس أولاً بأنك من طبقة السادة ، وثانياً بأنك ، رجل ذوجه . وثالثاً بأنك عالم . ورابعاً بأنك واعظ قدير . وربما تحتم شرط خامس وهو أن تكون مسيحياً . ولكن الشرط الذي ينشده الناس دائماً ، بكل قلوبهم وأرواحهم وقواهم ، هو الشرط الأول ، أي أن تكون من طبقة السادة . لقد كنت أستطيع أن أواجه الحياة ولا أبالي أنى ابن صانع بسيط ، لو أنه كان على شيء من الدماثة وحسن السمعة ، فروح المسيحية التواضع . . كنت أستطيع بمعونة الله أن أجابه الحياة مهما كلفني ذلك من عنت وإرهاق . ولكن ماذا أصنع إزاء هذا التشرذ المريع ، وهذه العلاقات الشائنة ؟ إنه إذا لم يقبل ما عرضته عليه ، ويغادر إنجلترا حطّم آمالنا ودفع بي إلى الموت . إذ كيف نطبق الحياة



وصرح آمالنا ينهت ، واختنا العزيزة (روزا) يتدهور مركزها الاجتماعى ،  
فتتدو ابنة لهذه العجربة ؟ » .

— ٣ —

ساد السرور أبرشية (ناروبرن) ذات يوم ، بعد أن عاد الناس من  
صلاة الصباح . ودار كل حديثهم حول القسيس الجديد (مستر هالبرو) ،  
الذى التى موعظته الأولى فى غيبة قسيس الكنيسة .

ولم يحدث من قبل أن استثارت مثل هذه المناسبة حساسة الناس . فقد  
دالت ، آخر الأمر ، دولة ذلك الأزيز الرتيب ، الذى تعود أهل هذا  
المكان القديم الهادىء طيلة قرن من الزمان ، وأخذ أهل القرية يرددون  
عبارات الخطاب ، كما يردد الناس لازمة الغناء . . « يا إلهى كن أنت  
عونى وناصرى » . ولم يكن أحد الناس ليدكر أنه سمع من قبل موعظة  
دينية ، كانت حديث الناس من باب الكنيسة إلى فنائها ، فألهتهم عن  
سيرة من حضروا الصلاة ، وأنستهم أنباء الأسبوع بوجه عام .

وظلت عبارات الواعظ الرنانة المثيرة ، ترددها قلوبهم وخواطرهم طيلة  
اليوم . وكانت الأبرشية قد ران عليها الركوند زمناً طويلاً . فلا عجب أن  
كانت أقوال هالبرو حدثاً جديداً ، وأن عباراته صارت تتجاوبها أذهان  
الشبان والعدارى ، والبكهول والعجائز ، ممن استمعوا إلى خطابه فى الصباح . .  
وكأتما سحرهم بيانه ، فجرت عباراته على ألسنتهم ، عن غير قصد .  
ويبلغ من إعجابهم به أنهم أخذوا يستررون حقيقة شعورهم ، بضحكات خفيفة

مصنوعة ، فقد اشتد استحيائهم لما عراهم من أحاسيس ، لا عهد لهم بها .  
وعجيب أن يتأثر هؤلاء القرويون غير المتدينين بواعظ من النمط  
الجديد ، بعد أن تعودوا أسلوباً عتيقاً في التربية الروحية ، ساروا عليه أربعين  
عاماً . وأعجب منه ، ذلك الأثر البالغ الذي تركه الخطاب في نفوس  
صاحب المقاطعة وأسرته . وقد حسب هؤلاء أنهم قادرون على الغض من  
شأن الخطبة العاطفية البحتة ، والتهوين من أمر أسلوبها البراق . ولكن  
جاذبية الأسقف الجديد قد استحوذت على مشاعرهم ، كما استحوذت على  
الآخرين .

وكان مستر فلر صاحب المقاطعة شاباً عزباً ، وكانت أمه لا تزال في  
ربيع العمر ، وقد استعادت مركزها القديم في الأسرة منذ توفيت زوج ابنها  
في أثناء الوضع بعد عام واحد من زواجها ، وتركت بنتاً صغيرة ضعيفة . وظل  
فلر منذ وفاتها يعيش معيشة خاملة ، منعزلاً في المقاطعة ، لا يحفره إلى العمل  
حافز ، فغض ذلك من إقباله على الحياة ، واستعادت أمه مكانتها في البيت  
الكثير ، وقصر عمله ، منذ ذلك الحين ، على إدارة أملاكه غير الواسعة .  
جلست أمه إلى جانبه هذا الصباح تستمع إلى الواعظ . وكانت سيدة صريحة  
سمحة ، تشتري بنفسها ما تحتاج ، وتعطي بيدها ما تهب ، وكانت كلفه بالأزهار  
العتيقة الطراز ، وكانت تجوب القرية في الأيام المطيرة ، لتزور أهل المقاطعة . .  
هذان الشخصان اللذان يتوَّجان هامة ناروبرون ، قد أخذنا بفصاحة جوشيا  
وتأثرا بها ، كما تأثر القرويون .

وكان (جوشيا) قد قدم إليهما تقديماً عابرة حالما وصل القرية منذبضة أيام . ثم زادا به كلفاً حينما سمعا خطابه ، فانتظراه لحظات قصيرة ريثما يخرج من غرفته ، ليسيرا معه في فناء الكنيسة . تحدثت إليه الوالدة مسز فلهز وأطرت خطبته إطراء حاراً ، وشكرت تلك الصدفة السعيدة التي أتت به إلى الإبرشية ، وأعربت عن أملها في توفيقه إلى مسكن يريجه .

فعلت وجه جوشيا حمرة خفيفة ، وهو يقول إنه وفق إلى استئجار منزل واسع يملكه أحد الفلاحين وذكر اسم الفلاح .

فقالت له إنها تخشى أن يشعر بوحشة في منزله ذلك ، وخاصة في المساء . وتمنت لو يجيب رجاها فيتردد كثيراً على منزلها ثم طلبت إليه أن يحدد يوماً يتناول فيه العشاء في ضيافتها . ثم اقترحت اليوم موعداً لذلك . فإن قضاء أول يوم من أيام الأحد في مسكن ريفي يبعث على الوحشة والملل .

فقال هالبرو إن هذا يسعده كثيراً ، غير أن ظروفه — للأسف — تضطره إلى الاعتذار « فأنا لا أعيش في عزلة تامة . فمعي أخت عادت أخيراً من بروكسل ، لأنها خشيت ، كما تخشين ، أن أشعر بالوحدة والوحشة . وستقيم معي بضعة أيام ، تعد فيها مسكني ، وتنظم أسباب إقامتي . ولم تستطع أن تحضر إلى الكنيسة لأنها متعبة أشد التعب . وهي الآن في المنزل تنتظر أوتى »

— « إذن احضر هامعك ، وهذا أفضل من حضورك وحدك . إنه ليسعدني

أن ألقاها .. ليتنى عرفت ذلك .. أبلغها إذا سمحت أننا لم نعلم بحضورها إلا الآن » .

فشكرها هالبرو ، مؤكداً أنه سيحمل هذه الرسالة إلى شقيقته . ولكنه لا يثق تمام الثقة بأنها ستحضر للزيارة . والواقع أن أمر الزيارة هذه منوط به وحده ، ( فروزا ) تجله وتقدس رغباته ، كأنها ابنته البار . غير أنه خشى ألا يكون معها ملابس لائقة . وأصر على ألا تزور منزل سيد المقاطعة هذا المساء ، في غير المظهر الجدير بها ، وفي المستقبل متسع لمثل هذه الزيارة . وعاد إلى المزرعة ، يذرع الأرض بخطى فسيحة . . هذا هو الانتصار الأول ، الذي أحرزه غداة اشتغاله في الكنيسة ، وأعقبته انتصارات . فقد عين قسيساً في أبرشية مريجة يشرف عليها وحده ، لأن الرئيس مريض . وقد أثر في الناس أعمق تأثير منذ البداية ، وكان غياب القلنوسة الأسقفية لم يضره شيئاً . وفوق كل ذلك ، فقد أقتع أباه ، بما بذل من جهد ومال بأن ييبحر هو وزوجته إلى كندا ، ليكون في مأمن من أن يفسدا عليه آماله . خرجت (روزا) لتلقاه ، فقال لها « كان ينبغي أن تنهبي إلى الكنيسة كما تفعل كل فتاة طيبة » .

« نعم . لقد ندمت فيما بعد على عدم ذهابي . ولكنني أبغض الكنيسة بغضاً جعلني استهين .. حتى بموعظتك أنت . وكان ذلك خطأ مني » .  
وكانت الفتاة التي تتكلم هكذا في مرح ودعابة ، شقراء طويلة كأنها من الحور ، تلبس ثوباً حريراً شفافاً ، يزينها دلال ورشاقة وجرة مليحة ،

وهي نواحي الفتنة التي تجلبها الفتاة الإنجليزية معها من الخارج ، ثم لا تلبث أن تفقدها بعد أن تقيم في بلادها بضعة أشهر . أما جوشيا فشخص جاد ، شديد البعد عن الدعابة ، والدنيا في نظره شيء هام خطير ، لا يُتداول في خفه . أحاطها بأمر الدعوة في عبارة حازمة موجزة .

«إذن فقد انفقنا ياروزا . فلنذهب ، إذا كان لديك فستان يليق بمثل هذه الزيارة المفاجئة . طبعي أنك لم تفكرى في إحضار فستان سهرة إلى مثل هذا المكان النائي»

ولكن روزا وافدة من بلد لا يفغل مثل هذه الشئون ، فقالت

« كلا . لقد أحضرته معى . . خوفا من المفاجئات »

« حسنا . . نذهب إذن في الساعة السابعة »

كان النهار يقترب من نهايته . وما وافى الغسق حتى بدأ رحلتها على الأقدام . ورفعت روزا طرف رداءها حتى لا يبيله الندى . فاستدار من حولها كأنه بالون . وكان حذاؤها الأطلس تحت ابطها . ولم يكن جوشيا يسمح لها بأن تظل على هذه الحال حتى تبلغ المنزل ، فتخلع حذاءها وتستبدل به الحذاء الذى تأبطته ، كما كانت تتوى أن تفعل ، بل أصر على أن يتم ذلك تحت شجرة ، حتى يدخل المنزل وكأتهما لم يأتيا إليه سعيا . على القدم . فقد كان جوشيا شديد التمسك بالشكليات ، بينما كانت روزا لا ترى في هذه الزيارة كلها — من مشى إلى لبس إلى عشاء — إلا لهواً وتسلية . . . لا خطوة حاسمة من خطوات الحياة كما كان يراها جوشيا .

لم تثر فتاة من اخوات القساوسة ، ما أثارته روزا من عجب ودهشة

في بادء العشاء. فلم تستطع مسز فلمر أن تخفى دهشتها ، وعلت وجهها الريبة. لقد كانت تتوقع أن ترى امرأة متزمتة متدينة ، فإذا بها تشهد شيئا يخالف هذا أشد المخالفة ، فتاة لعوبا مسرفة في الدلال . لو أن هذه الشابة صحبت أختها إلى الكنيسة ، لجاز ألا تقام هذه المأدبة في منزل (ناروبرن) ، في ذلك اليوم .

وكان البون شاسعا بين حال الابن وحال الأم ، فقد كان السيد أشبه بمن صحا من نومه في ظهيرة صيفية ، يحسب أن الوقت لا يزال فجرأ . فلم يتمالك ان يمد ذراعيه ويتأهب في وجوه النسوة . لقد أحس إحساسا قويا أنه صحا ، ففتحت عينه على شيء لم يكن في حسبانته . ولما جلسوا إلى المائدة ، جعل يكلمها أول الأمر في روجه بعض من عنجبية الحاكم . ولكن سحر الانوثه سرعان ما أنزله منزله . . ورأته فتاة بروكسل ، يرنو إلى قها ويدها وجسمها ، وكأنه لا يدري كيف أبدع كل هذا . ثم يستغرق في حلم سعيد ، يغشاه احساس عام ، لا يحفل بالتفاصيل .

لم يتكلم إلا قليلا ، أما هي فتكلمت كثيرا ، وكانت بادية الارتفاع والطمأنينة إلى هذا الترحيب الكريم من أسرة فلمر ، وهي أسرة يرهبا أهل هذه المقاطعة أشد الرهبة ويخشونها أشد خشية .

وكان السيد في العام الأخير قد غاض نشاطه ، وانزوى بعيدا عن بهرج الحياة ، حتى كاد ينسى ما يحتويه العالم . إلى أن كانت هذه الليلة ، فذكرت منه ناسيا ، وايقظت منه غافيا . فارتابت أمه في أمره بعض الوقت ، ثم آثرت أن تدعه وما يرى ، والفتت إلى جوشيا .

ومع أن جوشيا بعيد النظر ، شديد الدأب في سعيه لاصابة أهدافه ، فقد تجاوز هذا العشاء كل ما علقه عليه من آمال . فهو حينما كان يُسدى ويلحم في رداء آماله ، كان يرى روزا شيئاً صغيراً لامعاً ، يتطلب اظهاره كل ما أوتي هو من كفاية ومواهب . ولكنه أخذ الآن يرى أن روعة جسمها قد تجدى عليهم جميعاً ما لا تجدى هباته الفكرية . فبينما هو يشق نقفاً في الأرض ، إذا بها ترقى سلماً إلى السماء .

وكتب في اليوم التالي خطاباً إلى أخيه . وكان قد حل محله في الكلية اللاهوتية ، يخبره مبتهجاً مسروراً ، بما كان لزيارة روزا من أثر غير متوقع . ووصله برجع البريد خطاب تهنته يشوبه خبر مشئوم . فأبوه قد ضاق بمقامه في كندا ، وزوجته العجرية قد هجرته فشر بالوحشة والخنين إلى الوطن . وكان جوشيا في نشوة ابتهاجه بما أصاب من نجاح ، قد أوشك أن ينسى هم المزمّن . فقد طالت بينهما شقة البين . ولكن ها هو ذا يرتد إليه ... فيقرأ في هذا النبأ الموجز أكثر مما كتب أخوه . ويرى فيه نذيراً يشر مستطير .

— ٤ —

وذات صباح في ديسمبر التالي ، قبل عيد الميلاد بيوم أو يومين ، كانت مسز فلر وابنها يسيران ذهاباً وجيئةً في طريق الحصباء ، الذي يحد واجهة المنزل الشرقية . وكانت السماء تمطر رذاذاً حتى نصف الساعة الأخير قبل الظهر إنهما يتمشيان قبل الغداء فيقول الابن لأمه : تستطيعين أن تدركي يا أمه ، أن شذوذ حالتي هو الذي أضفى عليها هذا الرواء القاتم .

وانت إذا تدبرت تلك الصدمة التي أصابتنى منذ البداية، فشوهت حياتى وقبضتنى عن المجتمع، فقدت آمالى السياسية، ووقفت حياتى وأملى على تربية الطفلة التي تركتها لى (آنى). إذا تدبرت ذلك، أدركت لامراء، مدى حاجتى الى زوجة شائعة مثل (مس هالبرو)، تسمو بى الى حياة أرقى من حياة السائمة»

فأجابت أمه فى روح جاف غير صريح: « إذا كنت متيما بها الى هذا الحد، فلا مفر من الزواج. ولكنها ان تقنع — وسترى — بالعيش فى هذا المكان كما تعيش أنت، وأن تهب كل همها وعنايتها لطفلة صغيرة.» — « هذه نقطة الخلاف بيننا. فأنت تأخذين عليها أنها لا تنتمى الى أسرة كبيرة، وعندى أن هذا مما يزيكها، لأنه يجد كثيرا من مطامحها. فكل ما تصبو اليه -- كما قالت لى -- أن تحيا فى هذا المنزل، لا تتجاوز أبواب حديقته اذا لزم الأمر»

— « ما دمت كلفا بها يا ألبرت، وتتوى الزواج منها، فلا داعى لتلس المبررات وانتحال الأسباب. انك تريد خطبتها فى هذه المناسبة لامراء. أليس كذلك؟»

— « هذا لا يطابق الواقع. فانا مازالت أدير الفكرة فى ذهنى. فإذا ظلت على رأي فيها بعد زيادة الاختبار والدراسة، فسأحزم رأيى عندئذ وأبت فى الموضوع. ولكنى أريد الآن رأيك الصريح. اتميلين اليها» — «أصرح بذلك فى ارتياح. فهى تأخذ باللب منذ النظرة الأولى»



ولكنى لا أدري أتكون أما عطوفا على ابنتك أم لا تكون . . يظهر

أنك تتعجل الخلاص منى يا ألبرت »

— « كلا . . أنا لست شديد الحق كما تظنين ، ولا أتعجل البت في

الأمر ، ولكنى أفضى إليك بما يعين لى من رأى . . فإن وافقت عليه

فاذكرى ذلك صراحة »

— « أنا لا أصرح بشيء . وإذا صممت على فكرتك ، حاولت أن

أقتنع بها . . متى تحضر روزا ؟ »

— « غداً »

وكانت استعدادات تجرى حينئذ في منزل الأسقف لاستقبال أسرته . .

فستعود (روزا) التى أقامت هنا أسبوعين أو ثلاثة في أوائل العام ، فكان

لقامها أكبر الأثر في سيد المقاطعة . وسيحضر أخوها الأصغر (كورنيليوس)

فينتظم شمل عائله . ستأتى روزا من وسط إنجلترا ، فلا تستطيع أن تصل

إلا في ساعة متأخرة من ذلك المساء . أما كورنيليوس فينتظر وصوله بعد

الظهر . وقد استقبله جوشيا في الطريق الذى يمضى من المحطة ، ويمتدق الحقول .

وكان جوشيا قد أعد لكل شيء عدته في منزله المتواضع ، فسار في

الطريق ، وقلبه يفيض بشراً وشكراً — إذا صح أنه استشعر البشر أو الشكر

طول حياته — وقد مهدت سمته الطيبة سبيل أخيه في السلك الدينى ، تمهيداً

غير متوقع ، وكانت نفس جوشيا تنوق إلى مناقشة أخيه فيما أفادا من

تجارب في الحياة ، وإن كان ليهما موضوع أكثر استثارة وتشويقاً . فرأيه

منذ شبابه أن الاشتغال في الكنيسة في الريف ، يضى على المرء شيئاً من

الجلال ، يجهد قليل ، لا يغنى المشتغلين بأى عمل أو مهنة أخرى . وقد أيدت الحوادث صدق هذا الرأى .

ولم يكده يسير نصف ساعة ، حتى لمح ( كورنيليوس ) مقبلا . وتقابل الأخوان . ولكن كورنيليوس لم يكن مشرق النفس كما كان أخوه ، فحسب هذا أن الاطراق والتجهم الباديين على كورنيليوس يرجعان إلى ما يبذل من جهد فى الدرس والتحصيل ، إذ كان يشغل مركزا لا بأس به ، وليس ثم ما يبرر وجوده غير ذلك . وحادثه فى شأن (روزا) فى المساء ، والأثر المحتمل لهذه الزيارة الثالثة ، ثم قال وقد تهلل تهللا رزينا : « قبل عيد الفصح التالى ستكون روزا زوجا لصاحب المقاطعة يا بنى »

فهز كورنيليوس رأسه وقال : « سيكون الأوان قد فات »  
— « ماذا تعنى ؟ »

— « أنظر » وأبرز صحيفة (فوتول) ، وأشار بأصبعه إلى فقرة قرأها جوشيا تحت عنوان (قضايا صغيرة) . . تروى قضية عادية لرجل سيق إلى السجن مدة سبعة أيام لأنه تصرف تصرفا شاذا ، فقد كان يكسر النوافذ فى تلك المدينة .

فسأله جوشيا : « وماذا فى ذلك ؟ »

— « لقد وقع هذا الحادث ذات مساء ، وكنت فى الطريق . . والشخص المعتدى هو أبوك »

— « لا يمكن ! كيف ؟ لقد أجزلت له المال حين وعدنى بالاقامة فى كندا »

— « ولكنه عاد إلى قواعده ، سالما معافى »

ثم روى (كورنيليوس) في نبرته الحزينة بقينة القصة . فقد شهد للحادث دون أن يراه أبوه . وسمع أباه يقول إنه ذاهب إلى ابنته التي مستزوج من سيد ثرى . أما الجانب السعيد الوحيد في الحادث المشؤم ، فهو أن اسم الأب قد كتب في الجريدة : « جوشيا ألبرو » فقال أكبر الأخوين : « إذن فقد قهرنا !! قهرنا ونحن على أعتاب نصر منتظر !! كيف علم بأمر زواج (روزا) ؟ يا لله ! لكأنما كتب عليك يا كورنيليوس أن تحمل أبناء السوء أبدا . . أليس كذلك ؟ »

— « هو ذلك . . مسكينة روزا »

ثم واصل الأخوان سيرهما بقية الطريق إلى منزل جوشيا . وهما يغالبان البكاء من وقع الصدمة ، وفرط الحجل . وخرجا في المساء لاستقبال روزا ، وأحضراها إلى القرية في عربة . وما إن بلغت المنزل وجلست إليهما ، حتى أوشكا — وهما يتأملانها — أن ينسيا الهمّ الدفين ، الذى لا تدرى الفتاة من أمره شيئا .

وزارهم في اليوم التالى مستر (فلمر) ووالدته ، ثم قضى الجميع يومين أو ثلاثة أيام ، ملثوا فى خلالها نشاطا ومرحا . وثبت بما لا يحتمل الشك أن السيد تسيّرهُ عاطفته . . وأنه يتمخض عن قرار .

وفى يوم الأحد قام (كورنيليوس) بالقداس ، وتولى (جوشيا) الوعظ وكانت روزا من مسز فلمر بمكان الايثار والعطف ، وكأنها ابنتها . ولعلها هيات نفسها للترحيب بما لا مندوحة عنه ، وكان ترحيها لبقا كئيبا . وكان

على الفتاة الحسنة أن تمضى بعد الظهر مرة أخرى مع السيدة الكبيرة ،  
لتشرف على إعداد وليمة الأبرشية ، التي تقام في المنزل احتفالاً بعيد الميلاد ،  
ثم تحضر العشاء ، وتنتظر عودة أخويها لاستصحابها إلى منزلها في المساء .  
وكانا مدعوين أيضاً للعشاء ، ولكنهما اعتذرا ، لارتباطهما بموعد .

وكان موعدا ذاصبغة قائمة . فهما ذاهبان للقاء أبيهما بعد أن انتهت اليوم  
مدة عقوبته في سجن (فوتول) ، ليثنياه عن زيارة (ناروبرن) ، ويحملاه  
على العودة إلى كندا ، أو إلى قريته القديمة في وسط إنجلترا ، أو غيرها ،  
بحيث لا يفسد عليهما الحياة ، ولا يقضى على أمل روزا في القران المبارك  
الذي يتأرجح الآن في كفة الميزان .

أنى آل فلر لاستصحاب روزا إلى منزلهم ، وما كادوا يخرجون ، حتى  
بدأ الأخوان رحلتها دون أن يتناولوا العشاء أو الشاي . وأخرج كورنيليوس  
— وكان أبوه يوجه خطاباته إليه — ذلك الخطاب الجاف الذى أرسله  
إليه أبوه ، فأدى إلى هذه الرحلة ، وجعل يقرأه ثانية في أثناء سيره .

لقد أرسله إليه أبوه في الليلة الماضية ، حالما أطلق سراحه . يذكر فيه  
أنه سيتوجه إلى ناروبرن عقب فراغه من كتابة الخطاب . وأنه مفلس ،  
لذا فسيقطع الطريق على القدمين . وسيمر في طريقه بمدينة (إيفل) حوالى  
الساعة السادسة في اليوم التالى . ويتناول طعام العشاء في فندق (كاسل)  
بايفل ، ويأمل أن يأتى له ابناه بجزيرة يجرها حصانان أو ما إلى ذلك من  
المركبات ، حتى لا يشينهما بحضوره على هيئة جوال أفاق  
— « هذا يوحى بأنه يعنى بمركرنا بعض الشيء »

ولكن جوشيا أدرك التهمم الكامن في رسالة أبيه ، ولم يرد . وسادها حمت وهما يقطعان معظم الطريق . وكانت المصاييح تضيء ( إيفل ) حين بلغاها . . فرأى ( كورنيليوس ) ولم يكن يعرفه أحد في هذه الناحية ، وكان رداؤه غير كنسى ، ان عليه هو أن يمر بفندق كاسل . وسأل عنه عند باب الفندق ، وأجيب بأن شخصا يتصف بهذه الأوصاف قد غادر المكان منذ ربع ساعة ! بعد أن تناول عشاءه في المطعم . وأنه كان سكران ، يلعب الخمر برأسه .

قال جوشيا لما عاد إليه كورنيليوس يحمل هذا النبأ : « إذن لا بد أننا قابلناه ومررنا به في الطريق . . نعم قابلنا فعلا رجلا يترنح في مشيته ، تحت الأشجار القائمة على الجانب الآخر من ( هنفورد هل ) ، ولكن الظلام كان جالكا فلم نتيبناه تماما » .

وسرعان ما عادا صوب القرية . وقطعا شطراً كبيراً من الطريق دون أن يتبيننا شيئاً . ولكن بعد أن قطعنا نحو ثلاثة أرباع المسافة ، سمعا أمامهما وقع أقدام غير رتيبه . واستطاعا أن يستبيننا شبحا ضاربا إلى البياض في الظلام الدامس ، فتبعاه وهما في ريبة من أمره . . والتقى الشبح بأحد السابلة ، وكان هو الشخص الوحيد الذي أبصره في هذا الطريق المهجور . وسمعا يسأله عن الطريق إلى ( ناروبرن ) . فأجاب الرجل — ولم يعد الصواب في جوابه — إن أقصر طريق هو أن تنحرف عند السياج المجاور للقطرة التالية ، وان تسير في الطريق الضيق الذي يتفرع عندها ويخترق المروج . فلما بلغ الأخوان مطلع السياج . انحذرا في المشى ، ولكنهما لم

يدركا مبعث شقوتهما ، حتى اجتازا مرجين أو ثلاثة ، وتراءت لهما أضواء منزل سيد المقاطعة من خلال الأشجار . ولم يكن أبوها ماشيا بل كان جالسا على الجسر المبتل لحظيرة مجاورة . فلما رأى شبحيهما صاح بهما : « إني ذاهب إلى ناروبرن ، فمن عسى أن تكونا ؟ » .

ذهبا إليه وكشفاله عن شخصيهما ، وذكراه برأيه الذي أبداه في خطابه وهو أن يلتقيا به في ( إيفل ) .

فقال لهما : « يا للشيطان . . لقد نسيت . والآن ماذا تريد انى على أن أفعل ؟ » وكانت نبرته شكسة غير ودية .

وتلت ذلك مناقشة طويلة ، احتدمت حالما بدأ يذكران له أن الأليق به ألا يذهب إلى القرية . عندئذ أخرج الطحان من جيبه زجاجة ، وتمداهما أن يشربا شيئا منها إذا كانا يريدان التفاهم معه ، ومحسبان أنهما رجلان . ولم يكونا قد ذاقا الخمر منذ سنين . ولكنهما رأيا الا مانع هذه المرة ، حتى لا يثيرا حفيظة أيهما دون مبرر .

قال له جوشيا : « وماذا فيها ؟ » .

« قطرة من زيبب خفيف ممزوج بالماء . . إنها لا تؤذى . . أشرب من

الزجاجة » .

فرفع جوشيا زجاجة الخمر إلى فمه ، ورفع أبوه قاعها إلى أعلى ، كي يتطلع كمية كبيرة برغمه ، فتدفق السائل إلى معدته وكأنه رصاص منصره . وقال أبوه مقهقها :

« أحسنت . . إنه كحول خالص . . هاها » .

فسأله جوشيا وقد طار صوابه ، وإن حاول أن يصطنع الهدوء :  
« ولماذا تخدعنى هكذا ؟ » .

— « لأنك خدعتنى يا بنى بنفى إلى هذا القطر اللعين ، قائلاً إن ذلك  
لصالحى .. لقد كنتما منافقين تقصدان التخلص منى لا أكثر ولا أقل ..  
ولكنى أقسم .. أنى لكما كفاء وند .. وسأفسد عليكما أمر كما فلا تجروان  
على الوعظ فى الكنيسة .. ستزوج ابنتى من سيد هذه المقاطعة .. سمعت  
هذا النبأ .. قرأته فى جريدة » .

— « هذا قول سابق لأوانه » .

— « أنا أعلم أنه فى أوانه .. وأنه حق .. وأنا والدها ووليها ، فأنا  
الذى أزوجها .. وإلا فساحيلن الدنيا جحياً من الصخب .. هل هذا  
منزل السيد ؟ » .

نفدت حيل جوشيا ، فتولاه ياس مرير .. ولم يكن ( فلر ) قد صرح  
برغبته فى الزواج .. ولم يتم رضاء أمة ، فلو ظهر أبوهم على مسرح الحوادث  
فى الأبرشية ، لانهدم أشمخ قصر بنته الأمانى والآمال .

نهض الأب وهو يقول . « إذا كان السيد يقيم فى هذا المنزل ، فانى  
ذاهب لزيارته . لقد أتيت من كندا مع حظها السعيد .. ها ها .. أنا  
لأضمر للسيد سوءاً ، وسوف لا يريد بى إلا الخير . ولكنى أود أن أحتل  
مكانى من الأسرة ، وأن استمسك بحقوقى .. وأحط من كبرياء  
التجبرين » .

— « ها أنت ذا قد أفحلت .. أين تلك المرأة التي أخذتها معك إلى

كندا؟ » .

« المرأة؟! !! إنها زوجتي .. زواج شرعي قانوني كالدستور الذي

تخضع له ، علاقة أكثر شرعية من علاقتي بأملك ، قبل أن يمضي على

ميلادك بعض الوقت »

وكان جوشيا قد سمع منذ سنين طويله همساً خفياً ، ينبىء أن أباه قد

غرر بأمه أول ما عرفها ، ثم كفر عن خطيئته فيما بعد . ولكنه لم يسمع

هذا النبأ من شفتي أبيه قط ، فكان هذا الإعلان ضربة قاصمة لا يقوى

على احتمالها . فعاد القهقري حتى بلغ السياج . وقال : « لقد اتهمى كل شيء ..

وقضى علينا أجمعين » .

ومضى الصانع قدماً يلوّح بعصاه في نشوة النصر . . . ووقف الاخوان

جامدين ، يريان هيكله السنجابي يتسلل على الطريق ، بخطى واسعة وثيثة ،

تزين هامته أضواء يبعثها منزل (ناروبرن) ، ولعل (ألبرت فلر) جالس إلى

روزا في تلك اللحظة . . . لعله ممسك بيدها ، يطلب إليها أن تكون

شريكة حياته .

وتقدّم هذا الشبح السنجابي الترنح ، ليجو كل هذه الآمال . . . ثم

تضائل الشبح في الظلام . ثم اختفى فجأة بجانب قنطرة وسمع صوت شيء

يفوص في اللاء .

— « لقد غاص في الماء » كذلك قال كورنيليوس وهو يتقدم بسرعة

إلى حيث اختفى والده . فلما استفاق جوشيا من غشية أذهلته ، هرع إلى



جانب أخيه قبل أن يخطو هذا عشر خطوات ، وهمس في صوت أجش ،  
وهو يمسك بذراع كورنيليوس : « قف . قف . ماذا تريد أن تفعل ؟ » .  
— « أريد إنقاذه » .

— « نعم . نعم . وكذلك أنا . . لكن انتظر لحظة » .

— « لكن يا جوشيا » .

— « حياتها وسعادتها يا كورنيليوس كما تعلم ، وسمعتك وسمعتي . .  
وفرصتنا في الرقي معاً نحن الثلاثة » .

وأمسك بذراع أخيه ، واشتدت عليها قبضته . فوقفا يلهثان ، واستمر  
تلاطم الماء ، وغوص الرجل قريباً من القنطرة . وكانت تسطح فوقها  
الأضواء المرجوه ، مقبلة من مشتل المنزل ، تتلألاً بين أشجار ، تتمايل  
أغصانها العازية . ذات اليمين وذات الشمال . . لقد لبثا جامدين . زمنا يكفي  
لإنقاذ أيهما مرتين .

ثم ضعف صوت الماء ، واستطاعا أن يسمعا صوت غرغره وهتافا يردد :  
« أدركوني . . غريق . . روزي . . روزي » .

— « فلنذهب ! يجب أن نتقذه يا جوشيا » .

— « نعم . نعم . يجب . يجب » .

وظلا مع ذلك جامدين . ينتظران ما يحدث ، وقد أمسك كل منهما  
بذراع أخيه ، وفكر فيما فكر فيه . . وكأن أثقالا من الرصاص قد شددت  
إلى أقدامهما فلم تمد تطاوعهما . . وساد المرح سكون . . وخيل إليهما أنهما

يستطيعان رؤية أشباح تتحرك في المشتل ، وأن الهواء هناك يوضع بقبلات عطره .

وأخيراً سار كورنيليوس وجوشيا في وقت معاً . بلغا جسر الجدول بعد دقيقتين أو ثلاث ، ولم يريا في أول الأمر شيئاً ، مع أن الماء لم يكُ بالغ العمق ، ولا كان الليل بالغ الظلام . ولكن معطف أبيهما الكشمير كان يترامى واضحا وإن كان راسبا في قاع الجدول . وجعل جوشيا يجيل الطرف هنا وهناك .

ثم قال : « لقد جرفه الماء إلى القبو » .

وكانت التربة ، فيما يلي قنطرة المشاه ، تضيق فجأة ، فتصير إلى نصف عرضها ، وينساب الماء تحت قبو تمر من فوقه العربات إلى وسط المروج وقت تجفيف العشب . وكنا في موسم الفيضان ، فكانت القناة مترعة بالماء ، تتكسر عليها الموجات الخفيفة بين الحين والحين . . . وعندئذ تراءى شيء باهت ، ينزلق تحت القبو ثم يختفي في الحال .

فذهبا إلى الطرف الآخر للقبو ، دون أن يريا شيئاً . وظلا فترة طويلة ينظران من جانبي القبو ، عليهما يريان شيئاً . . . غير أن كل ذلك ذهب أدراج الريح .

— « كان ينبغي أن نسرع أكثر مما فعلنا » هكذا قال كورنيليوس ، وضميره يعاتبه ، حينما بلغ الإعياء منهما مبلغه ، وتصيب جسمهما عرقاً . فأجاب جوشيا في أسى وأسف : « أظن ذلك » ثم رأى عصا أبيه

على الشاطئ ، فأمسكها وهو يتلف ، وغرسها في التربة وسط الحفاء . . .  
ومضى الأخوان .

فهمس ( كورنيليوس ) في أذن أخيه حين اقتربا من باب منزله :  
« هل نذكر شيئا عن هذا الحادث ؟ »

« وما الفائدة ؟ لا خير في الافضاء . ويجب أن ننتظر حتى يعثروا  
عليه . »

ثم دلفا إلى المنزل ، واستبدلا بملابسها ملابس أخرى ، واتخذتا سمتهما  
إلى منزل السيد ، فبلغاه حوالي الساعة العاشرة . ولم يكن به سوى اختهما  
وثلاثة من الضيوف . . . وجار من ملاك الأراضى وزوجته . . . والقسيس  
القديم العليل .

وكانت روزا قد فارتقهما من قرة وجيزة ، ولكنها شدت على يديهما  
تقى شوق وسرور ومرح ، وكأنها لم ترهما منذ سنين . . . وابتدرتهما بقولها .

« يبدو عليكما شيء من الشحوب »

فأجاب أخوها أنها قطعا مسافة طويلة سعيًا على القدم . . . وأنها  
محتعبان شيئا ما . . . وكان الجميع منشغلين بشيء أو بآخر . فجار السيد وزوجته  
يرحبان بالضيوف ترحيبا لبقا ، وفلمر يقوم بدور المضيف ، متحمسا لدوره  
شغوقا به . وانصرفوا في الساعة الحادية عشرة واعتذروا عن قبول عربه تقلهم  
إلى منزل جوشيا . فالمسافة غاية في القصر ، والطريق جافة . . . وأوغل السيد  
بمعهم في جوف الظلام ليشيهم ، وتجاوز في ذلك ما تتطلبه المجاملة . . . ثم  
تأتى روزا جانبا ، واختصها بتحية غريبة مبهمة .

وينام يسرون ، قال لها جوشيا وهو يحاول الدعابة ما أمكن :  
«روزا ماذا في الأمر؟» . فبدأت تجيب في لهث واضطراب : «اوه . . أنا  
.. هو» فقال «لاداعى للإجابة ، إذا كان هذا السؤال يزعجك»

والواقع أن اضطرابها كان شديدا ، فلم تقو أول الأمر على الاسترسال  
في كلام متصل منسجم ، بعد أن تطايرت تلك الروح اللبقة التي كسبتها  
من الخارج . . . ثم هدأت نفسها قليلا وقالت : «لست مضطربة . . . ولم  
يحدث شيء . . . كل ما في الأمر أنه قال : إنه ينبغي أن يطلب إلى شيئا ما ،  
في يوم ما . . . وقلت له لاداعى لأن يطلبه الآن . . . لم يقل ماذا يطلب . .  
وسياتى ليحدثكما في أمره . لقد كان يود أن يحدثكما الليلة ، ولكنني رجوته  
ألا يتعجل . . . على اني واثقة أنه سياتى غدا»

— ٥ —

مضت تسعة أشهر ، وكنا في الصيف . وكان الحصادون ومجففو العشب  
يشتغلون في المروج ، وأمامهم منزل السيد . فكان معظم حديثهم يدور حوله .  
كانوا كثيرا ما يتحدثون بأبناء السيد والسيدة الثابتة اخت القسيس ،  
وكانت السيدة قد أثارت اهتمامهم جميعا ، وفازت باعجاب كثيرهم .  
وكانت روزا سعيدة ، إذا أمكن أن توصف امرأة بهذه الصفة في وقت  
من الأوقات . ولم تكن تدرى شيئا عن مصير ايها . وكانت تتساءل احيانا  
وقد تولاهما عجب — قد لا يخلو من احساس بالراحة . . « ترى لماذا لم يكتب  
إلى من مستقره في كندا؟ »

وكان أخوها جوشيا قد عين ، بُعيد زواجها ، قسيسا ذا معاش في بلدة صنيرة ، وحل كورنيليوس محله في ناروبرن .

كل الأخوان ينتظران كشف جثة ابيهما ، والتلقى العميق يتولاها . . . وكانا يتوقعان كل يوم أن يحمل نبأها غلام قادم من المروج . . . ولكن ذلك لم يكن . ومرت الأيام والأسابيع والشهور . . . وأقبل الزواج وولى . وتسلم جوشيا عمله الجديد ، دون أن تُسمع صرخة تنطلق فوق أشلاء صانع الطواحين .

حتى كان شهر يونية ، والناس يحثون المروج ، ويحجزون المياه ، ويجولونها عن مجاريها لصالح الحاصدين ، فكشفت الجثة . فقد كان رجل يضرب بمنجلة منحتى الظهر ، فوق بصره على داخل القبو ، ولمح شيئا يشتبك في العشب الذى انحسر عنه الماء أخيرا . وأجرى تحقيق بعد يوم أو يومين ، ولكن أحدا من الناس لم يتعرف على الفريق ، فقد نال السمك والماء من جسمه ما أخفى معالمة . . . ولم يكن يحمل ساعة أو شيئا ينبيء عن شخصيته . . . واتهى الأمر بأن صدر الحكم بأنه شخص مجهول غرق قضاء وقدرًا .

ولما كانت الجثة قد وجدت في أبرشيته (ناروبرن) ، فقد وجب أن تدفن هناك . فكتب كورنيليوس برجو أخاه جوشيا أن يحضر لقراءة الصلاة على روحه . . . أو ينيب عنه قسيسا آخر . . . أما هو فلا قبل له بأداء هذه المهمة . حضر جوشيا ، وتسلم أمر المدعى العام بدفن الجثة ، وفحصه في هدوء : «أنا هنرى جيلز، المدعى العام فى القسم الأوسط من وسكس

الخارجية ، أمر بدفن الجثة التي قرر قضاة التحقيق أنها لذكر بالغ مجهول . . . الخ »

أدى جوشيا هالبرو واجب الصلاة على روح الفقيد على نحو ما ، ثم لحق بأخيه في منزله ، دون أن يقبل أحدهما دعوة أختهما للغداء ، بحجة أنهما يتناقشان في مسائل كنسية . . . فجاءتهما بعد الظهر مع أنهما زاراهما في الصباح . . . ولم يكونا يتوقعان رؤيتها ثانية . وكانت عينها اللامعتان ، وشعرها الأسمر ، وقبعها الوردية ، وقفازها الليموني ، وخدها الأسيل الناضر ، كانت هذه الجمالي البهيجة تشيع في المنزل بريقا يخطف بالأبصار ، ويرهق نفسيهما الحزينتين الكئيبتين .

قالت روزا « فأنى أن أخبركما بأمر عجيب حدث قبل زواجي بشهر أو شهرين . . . شيء قد يكون ذا صلة بمحادث الرجل المسكين الذي دفن اليوم . حدث ذلك ليلة أن كنت في منزل ألبرت ، انتظر عودتكما لمرافقتي . . . كنت جالسة مع ألبرت في الحديقة الشتوية والدنيا سكوت . فخيّل إلينا أن صيحة تردد في المرح البعيد . . . ففتحنا الباب . . . وسرعان ما أحضر ألبرت قبعته ، وتركني وحدي ، فسمعت الصيحة تردد . . . فاضطرب ذهني حتى خيّل إليّ أن اسمي هو ما يتردد . ولما عاد ألبرت كان السكون قد عاد . . . وقلنا إنها صيحة سكران لا صوت . استغاثة . . . ونسينا الحادث . ولم يختر بيالي ، إلا بعد تشييع جنازة اليوم ، أن ما سمعناه لم يكن غير صياح هذا الرجل الغريب . أما سماع اسمي فلم يكن بطبيعة الحال إلا وهما ، أو لعل له زوجة أو ابنة تحمل هذا الاسم . مسكين هذا الرجل »

ولما خرجت روزا سادا لأخوين سكون وإطراق ، حتى قال كورنيليوس :  
«إنها سوف تعلم السر عاجلا أو آجلا»  
- «كيف؟»

- سيخبرها واحد منا .. أتظن أن قلوب البشر خزائن من فولاذ ،  
فستطيع الاحتفاظ بهذا السر إلى الأبد؟»  
فقال جوشيا : «نعم . أظنها كذلك في بعض الأحيان» .  
- «كلا سيضيع السر .. وستشقى به قلوبنا» .

- «وكيف ذلك؟ انحطم روزا ونقلتها؟ انجلب العار على بنيتها ،  
ونهوى بأسرة فلهم معنا إلى الحضيض؟ كلا ثم ألف مرة كلا ! انى لأفضل  
أن أغرق نفسى حيث غرق على أن أفضى بهذا السر . كلا . كلا  
ولاريب أن هذا رأيك أيضا يا كورنيليوس» .

فتشجع كورنيليوس ، وأقصر عن هذا الحديث . ومضى وقت طويل  
لم يلق خلاله جوشيا .

وما انتهى العام التالى حتى كانت روزا قد أنجبت وارثا لأسرة فلهم . .  
وجعل أهل القرية يدقون الأجراس الثلاثة كل مساء طيلة أسبوع أو يزيد .  
ويعرحون ، ويحتسون خمر مستر فلهم . وزار جوشيا نارورن مرة أخرى عند  
تعميد الطفل .

ولم يكن بين الجمع الذى التأم لهذه المناسبة شخص أكثر ا كتيابا  
وأقل اهتماما من الأخوين اليكسندريين ، فقد كان يمثل فى خاطرهما ابدا  
شبح يرتدى مغطا من اليكشمير . وينارا فى السبائك بين الحقول ، فقال جوشيا

« إن روزا في حالة طيبة . . أما أنت فتشتغل قسيساً أجييراً ، والغالب أنك ستستمر هكذا إلى آخر حياتك . وأنا أيضا . . ما قيمتي بمعاشي التافه ؟ . . . إذا أردت الحق ، فالكنيسة أمل جذب مقفر لمن يشتغلون بها من غير ذوى الجاه والنفوذ ، لاسيما حين تفتر حماسهم ، وتهن عزائمهم . أما خارج الكنيسة فأمام المصلح الاجتماعى فرصة أوسع ، لا يعوقه فيها تعصب أو عرف . ليتنى واصلت إصلاح الطواحين . . وقتعت بكسرة الخبز . . وحرىتى » .

وانحرفت أقدامها عن غير قصد إلى شاطئ النهر . . ووفقا على حافة القنطرة التى يعرفانها جيدا . . هذه هى السدود . . وهذا هو القبو . . وهذا قاع النهر تترأى فيه طبقة من الحصباء وراء الماء الصافى . وكانت أجراس الكنيسة تدق ، ويسمع لها رنين تشوبه صيحات القرويين المتحمسين . قال جوشيا وهو ينظر إلى الحلفاء : « أنظر . ألم أخف عصاه هناك ؟ » .

وهب نسيم عابر فى اللحظة التالية ، فلمع شئ أبيض فى الموضع الذى أشار إليه جوشيا . فقد نمت شجيرة مستقيمة العود من الحور القضى اللون وسط الحلفاء . والبريق الأبيض ينبعث من أوراق هذه الشجيرة . فقال جوشيا : « لقد نمت عصاه وأورقت ! كانت عصا خشنة قطعها من السياج على ما أذكر » . وكلا هب النسيم ، مال لون الشجيرة إلى البياض ، ولم يعودا يمتلان النظر إليها . . فانطلقا بعيدا . ثم غنم كورنيليوس وهو يقول : « إنى أراه كل ليلة . . آه ! إننا



نقرأ الانجيل عبثاً يا جوشيا . . وإن في صبرنا على حمل الصليب دون  
ما تورع أو خجل لبطولة أى بطولة ! . كم من مرة أحسست برغبة ملحة في  
أن أضع حداً للمتاعبي .. في نفس هذه البقعة » . فقال جوشيا: « ونفس هذه  
الفكرة تساورنى أنا أيضاً » فهمم أخوة : « وربما نفذنا هذه الفكرة  
يوماً ما » .

وأجاب جوشيا في عبوس وكدر : « ربما » .  
ثم عادا أدراجهما إلى المنزل ، وفي رأس كل منهما فكرة ... يتدبرها  
إذا هداً الليل ، أو سكن النهار .

# في الحولة الغربية

- ١ -

كان مصدر الارتباك الذي أصاب حياة هاتين السيدتين الودعتين رجلاً  
لا يُسَمُّ بالعظمة في أى معنى من معانيها ، وقد رأها أول مرة ذات مساء  
في شهر أكتوبر ، في مدينة ملشستر .

فقد وقف في الحقل تلك الأمسية ، يحاول أن يتأمل من خلال الظلام  
هَلك الأثر العجيب من آثار العمارة في العصور الوسطى بالجلترا . . وهو مبنى  
للكاتيدرائية الشامخ ، الذي يرتفع في المرح الرطيب المنفوح أمامه ، والذي  
يستدق كلما زاد ارتفاعاً . وقد أدرك بسمعه أكثر مما أدرك ببصره ، أن  
حوائط الكاتيدرائية قائمة أمامه . فهو لم ير هذه الحوائط ولكنها عكست  
تجاهه صوتاً هادراً مقبلاً من الطريق المؤدية إلى ساحة المدينة . كانت  
الضوضاء تنصب على البناء ، ثم ترد إلى مسامع ذلك الرجل .

فأرجأ تأمل البناء الرائع المهجور إلى الغد ، وأخذ ينصت إلى ضوضاء  
يختلط فيها صوت الأراغن البخارية ، ورنين النواقيس الكبيرة ، والأجراس  
الصغيرة ، وخشخشة الجلاجل ، وصيحات متباينة ، لا تستبين منها كلمة  
واحدة . ورأى من حيث أقبلت الضجة نوراً باهتاً ترتفع ألسنته في الهواء ،  
فيتم شطر هذه الناحية ، ومر من تحت باب ذى قباء ، ومضى في الطريق  
المستقيمة المؤدية إلى الساحة .

ولو أنه ذرع أوربا كلها ، باحثاً عن منظر يفوق هذا المنظر في تناقضه ،  
لما وجد إلى ذلك سبيلاً . فقد كان لونه ولهبه ، أشبه شيء بجحيم دانتى في

مهزلة الإلهية وكان في طرده ومرحه أشبه شيء بما كان يغشى عالم الأولمب من  
طرب ومرح. وكان نور باهر، يشوبه دخان كأنه أسلاك النحاس الصفراء  
ينبعث من مصابيح نفطية ركبت في الخيام والحوانيت المؤقتة ، التي ضاق  
بها هذا الميدان الفسيح . ويتراءى أمام هذه الأضواء المتألقة عشرات من  
البشر ، يقفزون يمنة ويسره مقبلين ومدبرين ، كما يقفزون إلى أعلى ،  
ويهبطون إلى أسفل ، ويستديرون ، كأنهم البعوض في أثناء الغروب .

وكانت حركاتهم رتيبة محكمة ، يخيل إليك أن آلات تنظمها وتضبطها ،  
وسرعان ما ترى هذه الآلات رأى العين . أما الأشباح فكانت أصحاب  
الأرجوحات ، وخشبات التوازن وما إليها . وأما قلب المكان فكانت  
تشغله دوائر بخارية ، تنبعث منها ألحان الأراغن .

وما لبث الشاب أن آثر شهود الناس في النور الساطع على شهود عمارة  
في الظلام . فأشعل غليونه القصير ، وأمال قبعته إلى جانب من رأسه ،  
ووضع إحدى يديه في جيبه لينسجم مع الوسط الجديد . واقترب من أكبر  
الدوائر البخارية ، وهي دوائر رائعة الصقل ، كانت سرعتها حينذاك  
قد بلغت مداها . وكان يتوسطها مزامير تدور الدوارة وفق أنغامها ، فوجهت  
المزامير أبواقها النحاسية إلى هذا الشاب ، وتراءت لعينه فبهرتة ، تلك المرايا  
البلورية المثبتة في أركان الدوارة ، والتي تدور إذا دارت ، فيتبدى فيها على  
نسق بديع منظر الدائرين ، وقد امتطوا صهوات الخليل الصناعية .

ويسهل عليك أن تستبين أنه يختلف عن جمهرة هذا الحشد ، فهو  
شاب راق مهذب لا تصادف مثله إلا في المدن الكبرى ، وعلى الأخص

في لندن ، رقيق البنية ، حسن البزة ، وإن لم يك زيه من أحدث طراز ؛  
ويدل ظاهره على انتمائه إلى إحدى المهن المحترمة ، وليس في نظراته ما ينبئ  
عن الخزم أو الصلابة أو النشاط . فوجهه أميل إلى البشاشة . وعواطفه حساسة  
فيما يبدو . فهو إذا استعرنا العبارة المأثورة — « رجل لا يمثل الطبقة الوسطى ،  
في عصر المادة الدينية التي طغت على الحب ، واعتصبت مكانه المقدس من  
القلب » .

وكان الراكبون الدائرون يمرون به . فأخذ برشاقتهم وهدوئهم ، فما  
كان يتوقع شيئاً من هذا في قوم لا تنبئ حركاتهم العادية بشيء من  
الرشاقة أو الهدوء . وبجيلة بارعة من حيل الدورات ، خبّت الخليل خبيئاً  
وارتداداً ، في توقيت محكم ونسق جميل . فكان كل حصان من هذه  
الخليل المطهمة يثب إلى الأمام ، بينما يترد زميله إلى الخلف ، فطرب  
الفرسان لهذه الحركات ايماطرب ، وأعجبوا أعجب الاعجاب بهذه الدوارة ،  
التي لا تزال خير مسلاة في عصرنا هذا . وكان الراكبون أخلاطاً من  
أعمار مختلفة ، فمنهم من لم يتجاوز السادسة من عمره ، ومن بلغ الستين ،  
ومن تنحصر سنه بين هاتين . وكان من العسير في بادئ الأمر أن تستبين  
إنساناً بعينه ، ولكن ما هي إلا هنيهة حتى استقرت عين صاحبننا على أجل  
فتاة في الموكب الدائر .

ليست هي ذات المجول الفاتح اللون ، والقبعة الفاتحة التي أثار  
إعجابه أول الأمر ، بل هي ذات الطيلسان الأسود ، والرداء الرمادي ،  
والقفاز الفاتح اللون . . . كلا . . . ولا هذه أيضاً . . بل التي تليها . ذات

الرداء القرمزي ، والسترة الداكنة ، والقبعة البنية ، والقفاز البني . . هذه  
أجملهن لا مرأء .

وما كاد هذا المستروح العابر يستقر على رأى ، حتى أخذ يفحص فتاته  
الختارة ، كلما مرقت في محيط ما يرى . . دون أن تشعرهى بغير لذة الركوب ،  
فقد اشتمل عليها طرب ، أنساها سنبا وماضيها وملاحمها . . بله متاعها . .  
أما هو فكان منقبض النفس ، كاسف البال ، شأن الكثيرين في هذا  
العصر ، فأبهجته رؤية الفتاة الصغيرة وهي تستمتع في نفس زمانه ومكانه ،  
يسعادة لا تشبهها سعادة ، وكأنها في الفردوس .

وكان أشد ما يحشاه ، أن تحمل تلك اللحظة التي يقرر فيها صاحب  
الدوارة أن هذه المجموعة من الراكبين قد استنفدت حقها . فيقضى على هذا  
اللهو والمرح ، فتسكن الآلة البخارية والحليل والمرايا والمزامير والطبول والصنج  
وما إلى ذلك . وجمل الشاب ، وهو يتوجس من هذا الحدث ، يرمق فتاته  
كلما عادت إلى الظهور ، وينظر في غيرا كثرات إلى ما يترأى من أشباح  
بين مرات ظهورها . . ومن هذه الأشباح البنتان غير الجميلتين ، والمرأة  
المعجوز ، والطفل ، والشابان ، والعروسان ، والرجل المسن ذو الغليون  
الحزفي ، والشاب المرح ذو الخاتم ، والشابات الجالسات في العربة ، والنجارون  
المتجولون . . وغير هؤلاء ، فتعبرهم نظراته جميعاً حتى تستقر على فانتته  
الريفية الختارة حين تمر أمامه . حقاً ، إنه لم ير طول حياته جمالا . فطرياً  
أبرع من هذا الجمال . . وصار جمالها يزداد تغلغلا في فؤاده كلما تراءت له ،  
حتى حلت اللحظة التي يحشاه ، فوقفت الدوارة ، وتهدت الراكبات أسفا .

ذهب إلى حيث قدّر نزولها . ولكنها لبثت في مقعدها . وشغلت  
المقاعد الشاغرة، فلا بد أنها تزعم دورة أخرى . فاقرب الشاب من حصانها،  
وسألها في ظرف ودعة : أوجدت في الركوب بعض المتعة ؟  
كان من غير العسير أن يبدأ حديثه معها . فهي بطبيعتها غير متحفظة ،  
وليس لديها من خبرة بشئون الحياة تحملها على اصطناع التحفظ . فما  
هي إلا ملاطفة طفيفة من جانبه ، حتى أجابت على أسئلته في صراحة وسعادة .  
أجابته أنها نزحت إلى ملشستر من قرية في السهل الكبير ، وأن هذه  
أول مرة تشهد فيها دوارة بخارية . . وأنها لا تدرى كيف تصنع هذه  
الآلات العجيبة . . وإنما أتت إلى المدينة بدعوة من مسز هارنهام ، لتدريها  
عليها تصالح خادماً . وأن مسز هارنهام هذه شابة كان اسمها قبل الزواج  
( مس أديث هويت ) وكانت تقطن الريف قريبا من كوخ هذه الفتاة . .  
لذا فهي شديدة الحذب عليها ، تقوم بنفسها على تعليمها . وهي الصديقة  
الوحيدة لهذه الفتاة . وليس للسيدة ولد ، فاحتضنت الفتاة وآثرتها على  
الناس ، وإن لم يرجع مقامها لديها إلى عهد بعيد . فسمحت لها بأن تفعل  
مابدا لها ، ومنحتها عطلة كلما أرادت ذلك . أما زوج هذه السيدة الشابة  
فمن تجار التبذ الأغنياء في المدينة ، غير أن زوجته لا تحفل به كثيراً .  
وكان منزله قريبا من المكان الذي يتحادثان فيه . وقد أحببت الفتاة  
ملشستر ، وآثرتها على الريف وعزلته ، وستشتري لها قبعة جديدة تلبسها  
يوم الأحد القادم ، تكلفها خمسة عشر شلنا وتسعة بنسات .  
ثم سألت صاحبها عن مكان إقامته فأجابها إنه يقيم في لندن . . تلك

المدينة القديمة القائمة ، التي يعيش فيها من يستطيع العيش في قتامها ، ويموت من لا يستطيع العيش في هذا القتام . وهو يأتي إلى ( وسكس ) مرتين أو ثلاثا كل عام ، لأداء عمل يتصل بمهنته . وأنه آتى من ( ووتنستتر ) أمس ، وسيذهب إلى المقاطعة المجاورة بعد يوم أو يومين ، وهو يؤثر الريف على لندن ، لأن في الريف فتيات — مثلها — بارعات الحسن ، موفورات الجمال .

عادت أداة اللهو إلى دورانها .. وبدأ شبح الشاب الوسيم يدور في عين الفتاة المرحة ، كما يدور الميدان بأضوائه وحشده ، وتدور المنازل من حوله ، وتدور الدنيا كلها ، وتنعكس دورتها في المرايا الدائرة عن يمينها ، فتخال نفسها النقطة الثابتة ، التي يدور من حولها عالم مأجج شاحب مثير ، يتبلج فيه ذلك الشاب الذي كان يحاورها أخيرا وتحاوره . فصارت كلما اقتربت من نصف الدائرة القريب منه ، بادلته النظرات والبسمات ، وتلك الايماء التي لا تعنى شيئا خطيرا في البداية ، ولكنها طالما أدت إلى الحب والجوى ، واللقاء والفراق ، والوفاء والنسل ، والشقاء والرضى ، والاستسلام واليأس ولما تباطأ سير الخليل مرة أخرى ، ذهب إليها الشاب ، وأشار عليها أن تدور دورة أخرى قائلا : « سحقا للأجر ، سأجازف وأدفعه أنا » .

فضحكت حتى أغرورت عينها بالدموع .

فسألها : « ولماذا تضحكين يا عزيزتى ؟ » .

فأجابت : « لأن .. لأن في وجاهتك ودمائتك ، ما ينبيء عن وفرة مالك .. وأنت إنما تمزح » فضحك الشاب كما ضحكت ، وأخرج نقودم

في لباقة وظرف ، فاستطاعت الفتاة أن تدور دورة أخرى .  
ووقف هو باسمًا وسط حشد شتى ألوانه ، ممسكا بغليونه ، مرتديا سترة  
ضخمة ، وقبعة عريضة ، فلم يكن يدور بخلد أحد من الناس أنه مستر شارلس  
برادفورد راى ، رجل القانون الذى تعلم في ( ووتنستتر ) وقيد اسمه في  
( لنكولن إن <sup>(١)</sup> ) ، وأنه ينتقل الآن مع المحكمة في جولتها الغربية ، وأنه  
إنما تخلف في ووتنستتر ليفصل في بعض القضايا الصغيرة ، قبل أن يلحق  
بزملائه في حاضرة المقاطعة المجاورة .

— ٢ —

كان يشرف على الميدان من طرفه الأقصى ذلك المنزل الذى أشارت  
إليه الفتاة . وهو منزل يتسم بالفخامة والضخامة ، ولكل طبقة منه عدد  
كبير من النوافذ . وجلست سيدة تتراوح سنها بين الثامنة والعشرين  
والثلاثين ، تطل من نافذة حجرة استقبال واسعة في الطبقة الأولى ، ولم تكن  
الستائر قد أسدلت بعد . وكانت السيدة تتأمل وهي شاردة اللب ، ذلك  
المنظر البهيج في خارج المنزل ، وقد اعتمد خدها على يدها . ولم تكن الحجرة  
مضاءة ، ولكن ما تسرب إليها من ضوء الساحة ، قد كشف عن وجه السيدة ،  
وهي امرأة تشوقك روحها ، أكثر مما يبهرك جمالها ، كثيرة التأمل ،  
حساسة الشفتين .

ودلف إلى الحجرة رجل أخذ يتجول ويتلصقا ، ثم تقدم إليها وقال :

---

(١) لنكولن إن : إحدى الهيئات الأربع ، صاحبة الحق المطلق في قيد أسماء  
المحامين أمام محاكم انجلترا [ المترجم ]



« أوه .. إديث .. لم أكن أراك .. لماذا تجلسين هنا في الظلام ؟ »  
فأجابت في صوت فاتر : « أنا أتفرج على المولد » .

— « إنه لضجة مزعجة تتكرر كل عام .. ليتها لا تكون » .

— « إني أحب هذه الضجة » .

— « على أى حال .. الأذواق تختلف » .

ونظر من النافذة معها برهة ، يجاملها بهذه المشاركة ، ثم انصرف من حيث أقبل ، ودقت السيدة الجرس بعد بضع دقائق .

— « ألم تحضر آنا ؟ » .

— « لا ياسيدتى » .

— « كان ينبغي أن تكون قد عادت .. لقد سمحت لها بالتغيب مدة

عشر دقائق فقط » .

فقالت الخادم في نجاسة وخبث : « هل أذهب للبحث عنها ياسيدتى ؟ »

— « كلا .. لا داعى .. ( آنا ) بنت طيبة . ، ومتحضر في الحال »

ولكن ما كادت الخادم تنصرف ، حتى نهضت مسز هارنهام ، وذهبت

إلى حجرتها ، وارتدت معطفها وقبعتها ، وهبطت الدرج ، فوجدت زوجها

وقالت له :

« أريد أن أشهد المولد . وأبحث عن ( آنا ) . لقد أخذت على عاتق

أن أرهاها ، ويجب أن أطمئن عليها لأنها تأخرت .. فهل تذهب معى ؟ »

— « انها بخير ، لقد رأيته الآن جالسة فوق أحد تلك الأشياء الدائرة ،

تتحدث إلى فتى أحلامها . على أنى مستعد أن أذهب معك إذا شئت .

وإن كنت أفضل أن أسير مائة ميل في اتجاه آخر ، على أن أسير خطوات إلى المولد . .

— « إذن لا داعي . . فلن يضيرني أن أذهب وحدي » .

وغادرت المنزل ، وتوارت في الجموع التي غص بها الميدان . وسرعان ما رأت ( آنا ) جالسة على الحصان الدائر . . وما إن وقف حتى تقدمت إليها مسز هارنهام وهي تقول في قسوة : « أبلغ بك الطيش هذا المبلغ يا آنا إنني لم أسمح لك بالتغيب أكثر من عشر دقائق » .

فاضطربت آنا واصفر وجهها ، وتقدم إليها شاب فساعدها على النزول وقال في أدب « أرجوك ألا تعنفنيها ، فأنا سبب تأخيرها . . راعنتي رشاقتهما وهي على الحصان ، فأغريتها بدورة أخرى . . فاطمئني عليها » .

« إذن سأتركها وديعة بين يديك » كذلك قالت ، واستدارت لتعود من حيث أتت .

ولكن العودة لم تكن ميسورة ، فقد هرع الحشد ليرى شيئا خلفهم وانساقتهى مع الحشد ، فوجدت نفسها مضغوطة إلى صاحب ( آنا ) لا تستطيع حراكا ، واقترب وجهها من وجهه ، وهفت أنفاسه على وجهها ووجه ( آنا ) . ولم يستطيعا أن يقابلا هذه الصدفة بغير الابتسام ، ووقفا صامتين . مستسلمين ، ينتظران أن يخف الزحام . . ثم أحست مسز هارنهام بيد رجل تمسك بأصابعها ، وأدركت من نظرة الشاب أنها يده ، كما أدركت من موضع الفتاة منه أنه يحسبها يد فتاته الحبيبة آنا . . فما الذي أغراها بأن تتركه سادرا في خطئه ، إنها لا تعلم . أما هو فلم يقنع بأن أمسك يدها ، بل أخذ

يداعبها ، ودس أصبعيه في داخل قفازها ليلبس كفها .. واستمر الحال على هذا المنوال حتى خف الزحام .. ولكن مسز هارنهام لم تستطع الانصراف قبل مرور بضع دقائق .

وجملت تسائل نفسها في أثناء عودتها : كيف تعارفا .. إني لأعجب .  
( أنا ) ساذجة جداً .. وهو .. في منتهى الخبث والظرف .

تأثرت السيدة أيما تأثر بأدب هذا الشاب وصوته ورقة يده ، حتى أنها لم تدخل المنزل ، بل قفلت راجعة إلى حيث تشهد الحبيبين من وراء حجاب وهي تقول لنفسها ، وكانت أقل خفة من آنا ، « للفتاة كل العذر في استدراجه ، بل لها كل العذر في السعي إلى معرفته ، فهو آية في الظرف والجادبية ، وعيناه آية في السحر والجمال » ثم ذكرت أنه يصغرهابعدة سنين ، فتهددت دون ما سبب تعرفه .

وانصرف الحبيبان عن الدوارة البخارية ، واتجها صوب باب مسز هارنهام ، وسمعت بأذنها قول الشاب لفتاته إنه سيسير في صحبتها حتى المنزل .. لقد وجدت آنا عاشقاً إذن ، عاشقاً يبدو عليه الاخلاص الشديد ، والحب العميق . فآثر ذلك في مسز هارنهام تأثيراً بالغاً . وسار الحبيبان نحو المنزل في طريق خاو وحجبهما . ظل خائط برهة من الزمن ، ثم افترقا فذهبت ( آنا ) إلى الباب وعاد صاحبها إلى الميدان .

فلحقت مسز هارنهام بخادمتها وقالت : « آنا .. كنت أرقبكما ..

وهذا الشاب قبلك عند الفراق .. أنا واثقة »

فتلعثمت آنا . وهي تقول : « لقد قال إنه إذا لم يمنعني مانع ، فهذه

القبلة لن تضيرني شيئاً ، وسوف تسعده أبداً ..

— « آه .. لقد فهمت .. وهل هذه أول مرة تلقينه ؟ » .

— « نعم ياسيدتى . »

— « ولكن لا بد أنك ذكرت له اسمك ، وكل شأن من شئونك »

— « لقد طلب منى ذلك . »

— « ولكن هل أخبرك باسمه ؟ » .

فصاحت أناصيحة المنتصر: « نعم ياسيدتى : اسمه ( شارلس برادفورد )

من لندن » فقالت السيدة وقد حنا قلبها على الشاب ، رغم العرف والتقاليد

« إذا كان رجلاً جديراً بالاحترام ، فلا بأس عليك من معرفته . ولكن

إذا حاول أن يحدد علاقته بك ، كان لى رأى آخر . ليت شعرى . . كيف

يتأتى لفتاة ريفية مثلك ، قدمت ملشستر فى هذا الشهر فقط ، ولم تر من قبل

رجلاً ذا سرة سوداء . كيف يتأتى لها أن تتصبي شاباً لندنياً كهذا الشاب ؟ »

فقالت آنا وهى تضطرب : « لم أفعل شيئاً من هذا ياسيدتى »

ولما خلت مسز هارنهام إلى نفسها أخذت تفكر فى صاحب (أنا)

كم بدا لها شاباً مهذباً راقياً ، وكم سحرها غزله وهو يعيث بيدها ... ترى ماذا

أعجبه فى هذه البنت ؟

وفى الصباح التالى ذهبت تلك المرأة العاطفية (إديث هارنهام) ،

لتؤدى صلاة فى كاتيدرالية ملشستر . فرأت وهى تجتاز الحقول وماغشيتها من

الضباب ، ذلك الشاب الذى أرقها فى الليلة الماضية .... وكان يتأمل بناء

الكاتيدرائية الشامخ وما كادت تستوى في مجلسها ، حتى أقبل ، وجلس على مقعد يواجه مقعدها .

لم يخلصها بلفتة أو بسمه ، وان ظلت عيناها ترمقانه ، وأخذ عليها العجب كل سبيل : ترى ماذا هيمه بالخدمة الصغيرة الساذجة البلهاء ؟

وكانت السيدة وخدامها لاتدرين شيئا عن فتى آخر الزمان ، والا لأقصر تا عن العجب . فها هو ذا ( راي ) يتلفت حوله برهة ، ثم يغادر المكان فجأة ، دون أن ينتظر انتهاء الصلاة . ففاض اقبال المرأة الحساسة على الصلاة . ليتها تزوجت من لندن ي محذق أفانين الغزل ، كما يحذقها هذا الشاب الذي داعب يدها ... يحسبها يد فتاة أخرى .

وكان جدول القضايا قصيرا ، لا يشغل المحكمة إلا بضع ساعات . ولم يكن ( راي ) شأن بالجلسات التي تعقد في ( كاستر بروج ) حاضرة المقاطعة التي يتوجه إليها القضاة بعد هذه المقاطعة في جولاتهم الغربية . ولا يبدأ العمل في المدينة التي تليها إلا يوم الاثنين القادم ، ولا تبدأ المحاكمات إلا في صباح الثلاثاء . ولو سارت الأمور سيرتها الطبيعية لبلغ « راي » تلك المدينة الأخيرة بعد ظهر الاثنين . ولكننا لانراه بها إلا ظهر الأربعاء ، وقد ارتدى عطفه ، وتوج رأسه بشعره المستعار الأشيب ، الذي جدل على أحسن نسق للفن الأشورى . ونرى الضفائر تتطاير وتواجه من خلفه ، وهو يمشي الخطى في الطريق العام بعد أن غادر منزله . ودخل المحكمة . وإن لم يكن له عمل بها ، وجلس الى المائدة الزرقاء في قاعة المحكمة يصلح

أفلامه ، ولبه شارد عن القضية المنظورة .. كان يفكر في عمل أناه عن غير عمد، وكان منذ أسبوع يظن نفسه عاجزا عن إتيانه ... وأسلمه تفكيره إلى شعور حزين مقلق .

فقد قابل الفتاة الريفية الجميلة في اليوم التالي للمولد ، وسار معها خارج لمدينة إلى حصون ملشستر القديمة .. ولبث في ملشستر طوال أيام الأحد والإثنين والثلاثاء شغفا وهياما بهذه الفتاة ... واستطاع أن يعريها بالسير معه ومقابلته ست مرات أو سبع في أثناء هذه الفترة ، وصفوة ما حدث أنه استطاع اقتناصها روحا وجسداً .

فكان يدور في خله أن العزلة التي ركن إليها أخيراً في لندن ، هي التي أدت بعواففه إلى هذا الانطلاق الطائش ، نحو فتاة مسكينة ساذجة ، جاهلة بشئون الحياة ، أسلمته أمرها منذ اللحظة الأولى من غير ما تحفظ أو حذر ، وكان يعرض بنان الندم لأنه عبث بقلبها إشباعاً لنزوة عابرة . ويرجو ألا يكون قد طمس نور حياتها إلى الأبد .

سألته ضارعة أن يعود إليها ، وتوسلت إليه باكية . فوعدها .. وهو ينوى إنجاز ما وعد .. فهولا يستطيع أن يتخلى عنها الآن .

وإذا كان من طبيعة مثل هذه العلاقات أن تخرج وترتك . فان بينه وبين الفتاة التي ارتكب معها هذه الحماقة مسافة مائة ميل . وهي مسافة تبدو لعقلها المحدود كأنها ألف ميل . فهي إذن بعيدة عن أن تفسد حياته أو تحطم مستقبله .

وفي الوقت ذاته قد يؤدي تفكيره في حينها الساذج إلى أثر عكسي ، فينصرف

عن حياة العبت في المدينة ، ويقبل على ما تتطلبه حياتها من جد . .  
وسيزهد إلى ماشستر في الجولات الغربية ثلاث مرات أو أربع ، فيستطيع  
في هذه الفترات أن يلقاها .

وقد ذكر لآنا في نزوته العاطفية ، ذلك الاسم الذي أشرنا إليه ، ولم  
يكُ يدري حينذاك أن علاقته به استمضى إلى هذا الأمد . ولم يُمن بتصحيح  
عنوانه فيما بعد . غير أنه شعر عند رحيله ، أن عليه أن يعطيها عنوان بائع  
ورق يقطن قريباً من منزله ، لترسل إليه خطاباتهما ، وتكتب على الغلاف  
حرفي (ش) و (ب) وهما الحرفان الأولان لاسمه .

ولما حان موعد الأوبة عاد إلى مسكنه بلندن ، وعرج في طريقه على  
منشستر ، وقضى بضع ساعات مع طفلة الفاتنة البريئة ... ( آنا ) . وسارت  
أيامه في لندن على نسق رتيب مل . وأحسن كأنما غشى نفسه ضباب  
قاتم ، فغزله عن العالم بأسره . وكما أشعل مصباح الغاز ليقراً أو يكتب  
أحسن بأنه في موقف غير طبيعي ، فرنا إلى النور ، واستغرق مفكراً في  
هذه الفتاة الواثقة به في ملشستر . وكما برّح به الوجد الأحق ، هرع إلى حرم  
المحكمة المقدس المعتم ، ودفع بمرفقه بعض الحامين الحديثين ، الذين يرتدون  
عطافاً كعطافه ، وليس ثم ما يتطلب حضورهم أو حضوره ، وشق طريقه  
إلى إحدى القاعات المزدهجة ، حيث تنظر قضية مثيرة ، وكان له بها شأنًا ،  
وإن كان الضباط الواقفون بباب القاعة يعلمون حق العلم أن هذه القضايا  
لا تمت إليه بسبب ، إلا بقدر ما تمت به إلى أولئك القوم الخاملين ، الذين  
يقفون بباب المحكمة الخارجى منذ الثامنة صباحاً ، دون ما كلل أو ملل . .

لأنهم — كهذا السيد — يترقبون ما تتمخض عنه الأيام . غير أن هذا السيد لا يهدف إلى شيء من غشيان المحاكم ، إلا أن يستروح بأن يرى هذا البيون الشاسع بين غلظة المتقاضين وبين آنا . . اليانعة الوادعة . . التي تهفو على الروح كما يهفو النسيم .

ومن عجب ألا تكتب إليه هذه الفتاة الفلاحة حتى الآن ، مع أنه أشار عليها بالكتابة إليه إذا شاءت . . ولا تستطيع فتاة في سنها أن تكون كتوماً إلى هذا الحد في ظرف كهذا الظرف . وأخيراً أرسل إليها كتاباً موجزاً ، يرجوها فيه أن تكتب إليه ، فلم يصل رد برجع البريد . . بل سلمه بائع الورق بعد يومين خطاباً مكتوباً بخط نسائي أنيق ، يحمل طابع البريد في ماشستر .

وكان وصول الخطاب كافياً لاشباع عاطفته وخياله ، فلم يتعجل فتح الرسالة المقدسة . ولم يبدأ قراءتها إلا بعد ساعة من وصولها . وكان يحسبها عابقة بالذكريات الحبيبة ، والضراعات الرقيقة . فلما مد قدمه إلى المدفأة وفض الغلاف ، أخذ العجب والإعجاب . فهذه رسالة لا إسراف فيها ولا ابتذال ، ولم تصل قط رسالة من امرأة أمتع من هذه الرسالة . صحيح أن اللغة بسيطة والأفكار تافهة ، غير أن روحها الهاديء الرزين ينم عن فتاة طاهرة تعز بأنوثتها ولا تبتذل كرامتها ، فأعاد قراءتها مرتين ، وكانت تقع في أربع صفحات مليئة ، وبها بضعة أسطر مكتوبة بالطول ، على نمط كان مألوفاً في الماضي . . أما الورق فعادي ، لاهو باللون ولا بالشديد النعومة . ولكن ما لنا ولهذا السفاسف ؟ لقد جاءت من قبل خطابات من فتيات أرقى



الأوساط ، غير أن هذا الخطاب قد فاقها جميعا في رفته وعذوبته . إنه لا يستطيع أن يشير إلى جملة بعينها ويقول : ما أروع هذه العبارة ! ولكنه أخذ بروعة الخطاب في مجموعه ، فاستولى على كل جارحة فيه . ولم يبد في الخطاب ما ينم عن إحساسها بمحقتها عليه غير رجائها بأن يرسل إليها كتابا ، أو يعود إليها سر يعا .

وكان آخر ما يدور في خلد (راى) في ظرف كهذا ، أن يعاود الكتابة إليها . ولكنه أرسل إليها سطرأ أو سطرين فيهما عطف وتشجيع ، وأمهرها باسمه المستعار ، وطلب إليها أن تنفحه برسالة أخرى . . ووعداها في كلمة فرحة مستبشرة أن يبذل وسعه لزيارتها في وقت قريب ، وأنه سوف يذكر دائما ما بلغ كل منهما من نفس صاحبه .

— ٤ —

ولنعد الآن إلى اللحظة التي تسلمت فيها (آنا) كتاب (راى) في ملشستر . لقد وضعه الساعى في يدها في دورته الصباحية . وما إن تسلمته حتى احمر وجهها بأسره ، وجعلت تقلب الكتاب على وجهيه وتتساءل : « أهذا الكتاب لى أنا ؟ » فقال الساعى وقد افتر ثغره عن ابتسامة . فقد فهم طبيعة الخطاب ، وسبب الاضطراب : « نعم . . الأترين العنوان » . — « نعم . . طبعا . . إنه لى » كذلك أجابت (آنا) وهى تنظر

إلى الخطاب ، وقد كبتت ضحكها في جهد جهيد ، وازداد وجهها حمرة . وظلت على ارتباكها بعد انصراف ساعى البريد . . ففضت الغلاف ،

وقبلت ما بداخله ، ودست الكتاب في جيبها .. واستغرقت في التفكير . .  
حتى اغرورقت عينها بالدموع . ولم تمض بضع دقائق حتى حلت فنجان  
الشاي إلى (مسز هارنهام) في حجرة نومها . فنظرت إليها السيدة وقالت :  
« كم أنت متجهمه الوجه هذا الصباح يا آنا !! ما خطبك ؟ » .

— « لست متجهمه . . بل أنا مسرورة . . ولكني . . » وسكتت  
هنيهة حتى لا يغص صوتها بنبرة البكاء .

فسألتها سيدتها « ماذا تقولين » :

— « جاءني خطاب . . ولكن ما فائدته لي وأنا لا أقرأ حرفاً ؟ » .

— « كيف ؟ سأقروه لك أيتها الطفلة إذا أردت » .

فتمتت آنا : « إنه خطاب من إنسان معين ، ولا أحب أن يطلع  
غيري عليه » .

— « لن أخبر بفجواه أحداً . . أهو من ذلك الشاب ؟ » :

فأجابت (آنا) ، وهي تخرج الخطاب من جيبها في بطاء : « هو منه  
على ما أظن . . فهل تقرئينه ياسيديتى ؟ » .

هذا سر ما أصاب (آنا) من ارتباك واضطراب ، فهي أمية لا تقرأ  
ولا تكتب ، نشأت مع عمته في مزرعة بالسهل العظيم في وسكس الوسطى  
ولم تك هناك مدرسة بالقرب من المزرعة — حتى مسافة ميلين منها —  
وإن كنا في عصر انتشار التعليم الشعبي .

وكانت عمته جاهلة ، وليس من أحد يعنى بأمر (آنا) وتعليمها .

وإن كانت عمته قد أحسنت طعامها وكساءها ومعاملتها .

ومنذ أن قدمت ملشستر لقيت اهتماما وحنوا من سيدتها مسز هارنهام فعملتها سيدتها كيف تتكلم بلا خطأ . وأظهرت (آنا) استعداداً كبيراً في هذا الصدد ، شأن الكثيرات من الأميات ، وسرعان ما حذقت العبارات التي ترددها سيدتها . . وكذلك أحضرت لها سيدتها كتاباً للتهجى وكراسة للخط ، وبدأت تعلمها القراءة والكتابة . بيد أنها كانت أكثر تخلفاً في هذه الدراسة عنها في تعلم أساليب الحديث . كانت هذه قصة آنا حتى جاءها الخطاب .

وبدت في عيني السيدة السوداوين النجلاوين أمارات الاهتمام بفحوى الخطاب ، وإن حاولت أن تقرأه قراءة آلية ، متخذة موقف المترجم فحسب ، إلى أن أتت عليه . وفيه يرجو الكاتب مداعبا أن يصله رديق يقى فقالت آنا لسيدتها في تلهف « هل تتفضلين على بكتابة رد جميل ياسيديتي العزيزة ؟ أنا لا أحتمل أن يتكشف له جهلي . ولو عرف لساخت بي الأرض خزيا وعارا »

وأوحت بعض عبارات الخطاب إلى مسز هارنهام بأن توجه أسئلة إلى خادمتها ، وأكدت الردود ما خامرها من شكوك . فتولاها التعلق على هذه الفتاة التي عقدت كل سعادتها ومستقبلها بهذه العلاقة الفجة . وعتبت على نفسها لأنها لم تضع حدا لهذا الغزل ، الذي عاد بأوخم العواقب على بنت صغيرة مسكينة تعيش في حماها . . . . وإن كانت حينما رأتهما لأول مرة قد أحست بأنها عاجزة عن قتل الحب الوليد ، وهو لا يزال في المهد . . على أن الندم لا يجدى شيئا ، والأجدر بولية آنا — وليس لها من ولية سواها —

أن تساعدها ما وسعها المساعدة . فلما ضرعت إليها الخادم ضراعة الملهوف أن تنشىء لها الرد على كتاب فتاها اللندنى ، وأن تكتبه بنفسها ، شعرت أن من واجبها أن تقبل ، حفاظاً على جذوة الحب أن تخدم في صدره . ولولا ذلك لأشارت عليها — في غالب الظن — بأن تلجأ إلى الطباعة لتكتب ما تمليه عليها .

وعلى هذا أعد رد رقيق دمج بقلم (إديث هارنهام) . . هو ذلك الخطاب الذى تسلمه راي فأثار عجب . وقد كتب في حضور آنا . وعلى ورقها المتواضع . واشتركت في صياغة بعض عباراته . غير أن إديث هارنهام هى التى نغخت فيه الحياة والروح والشخصية جميعا .

ثم قالت لخادمتها : « ألا تكتبين اسمك على الأقل ؟ انك تستطيعين ذلك الآن » فقالت ( آنا ) وقد تولاهما الذعر : « كلا يا سيدتى . ! إني أكتبه رديئا . . وأخشى أن يحقرنى وينصرف عنى » .

رجته في أسلوب لبق أن يكتب إليها ردا ، واشتمل الخطاب على قدر من البراعة والكياسة يكفل تحقيق هذا الأمل . فأرسل إليها ردا يعرب فيه عن شديد غبطته بما تكتبه إليه ، ويرجوها أن تنفحه بخطاب كل أسبوع .

فكرر تحرير الخطابات ؛ وكانت تتعاون فيها ( آنا ) وسيدتها . ولبثتا على هذه الحال عدة أسابيع متتالية . وكانت ( إديث ) تشير بما ينبغى أن يكتب ، ثم تكتبه والفتاة واقفة إلى جانبها . فإذا جاء الرد قرأته إديث ، وعلقت عليه ، ووقفت ( آنا ) إلى جانبها ، تصغى إلى ما تقول .

وأوغلت مسز هارنهام في السهر ذات مساء في الشتاء ، بعد أن أرسل الخطاب السادس ، وأسلمت نفسها لتفكير متصل مستمر لا يحفل بالزمن أو بالطقس . وكان مبعث هذا التفكير أمراً أته في ذلك اليوم .

فقد ذهبت أنا إلى كوخها في السهل لأول مرة بعد تعرفها برأى ، لتقضى ليلة أو ليلتين مع صديقاتها . وفي أثناء غيابها ، جاء — على غير انتظار — خطاب من ( راي ) ، ردت عليه إديث من تلقاء نفسها ، واستوحت في كتابته ما يجيش في أعماق قلبها ، دون انتظار معونة من خادماتها .

ما كان أسعدها وهي تكتب إليه كلمات لن يطلع عليها سواه !! فأطلقت العنان لعواطفها وبتت ذات نفسها في الخطاب ، واستشعرت بعد كتابته سعادة لا تشبهها سعادة . ولكن ما مصدر هذه السعادة ؟

كانت إديث هارنهام تعيش في عزلة ، ووافقت على كره منها وهي في السابعة والعشرين ، أن تزوج من تاجر نبيذ تجاوز دور الشباب ، عملاً بنصيحة الأمهات الإنجليزيات ، اللاتي يؤثرن الزواج مهما تكن سوءاته ، على حياة العذارى مهما تهيأ لها من حرية وعزة وفراغ . غير أنها أدركت خطأها فيما بعد . فهي لا تزال بعد الزواج امرأة لم تهتز أعماق نفسها لشيء مما لقيت .

وقد تبين لها الآن في غير لبس أو غموض ، أن روحها قد تعلقت بأهداب رجل لا يكاد يعرف عنها غير الاسم ، استهوتها أول الأمر نظرته وورنين كلماته ورقيق ملمسه . . فكانت هذه هي البندرة . . ثم كتبت الخطاب تلو الخطاب ، وقرئت ردود رقيقة تلو ردود رقيقة . . فما الغرس .

وأينعت العاطفة . فتجاوبت النفسان . . وتبادل الحب ، فشبت في نفسها  
تذريجا عاطفة تجاوب عاطفته . وكان أشد ما راع المرأة — وإن لم تصرح  
لنفسها بذلك — أنه استطاع أن يغوى امرأة أخرى في يومين ، فاستسلمت  
روحاً وجسداً .

صاغت إديث عواطفها المشبوبة المكبوتة في لفظ مبسط لا يتجاوز  
المقطع الواحد ، إمعانا منها في التخفي ، ووقعت الخطاب بغير توقيفها ،  
لتطرب آنا الساذجة ، التي لا عهد لها بهذه الأخيلة الجميلة التي سبت قلبه ،  
ولا قبل لها بتصورها حتى إذا تعلمت الكتابة . وأدركت ( إديث ) أن  
الشاب اللذني ، إنما يجاوب عاطفتها الحارة المنبثة في رسائلها ، ولا أثر في نفسه  
لما تلميه ( آنا ) من جمل قليلة بين الحين والحين .

لم تدر ( آنا ) شيئا عما كتب في غيابها . ولكنها لم تكذب تعود في  
الصباح التالي ، حتى ذكرت أنها تريد لقاء حبيبها لأمر عاجل ، ورجت  
مسز هارنهام أن تطلب إليه الحضور .

ونمّ مظهرها عن حالة عجيبة من القلق ، لم تخف على مسز هارنهام ،  
وأخيرا أفصحت عن نفسها بفيض مدرار من الدمع ، واعترفت وهي جاثية  
إلى جانب ركبتى إديث ، أن صلتها بحبيبها قد أدت إلى شيء لا يحسن  
السكوت عليه .

وكانت ( إديث هارنهام ) كريمة النفس لا يخطر ببالها أن تتخلى عن  
( آنا ) في هذه اللحظة الحرجة . . وقد أغفلت نفسها وقلبها إغفالا لا  
تستطيعه أي امرأة طبيعية ، مهما يكن استعدادها لحماية خلصائها . وكان قد

مضى وقت وجيز على خطابها الراى ، بيد أنها اضطرت أن تثنى عليه بخطاب ، أشارت فيه إشارة واضحة إلى ما حدث ، ولكن فى أسلوب كيس لبق .  
وبعث (راى) برد قصير سريع ، ذكر فيه أنه مهتم جداً بالاهتمام بالأمر ، وأن من واجبه أن يهرع لرؤيتها فوراً .

غير أن الفتاة جاءت بعد أسبوع إلى حجرة سيدتها وفى يدها خطاب آخر قرأته سيدتها وفيه ينبئها حبيبها أن وقته لم يتسع للحضور . فتفطر قلب (آنا) حزناً وجزعاً ، ولكنها — عملاً بنصيحة سيدتها — تجنبت أن توجه إليه أى لون من اللوم القارص ، أو التعنيف اللاذع . . . كما تفعل الفتيات عادة فى مثل هذه الظروف . . . ثمّة اعتبار يجب أن يسبق جميع الاعتبارات . . . هو الإبقاء على شعلة الحب المقدسة فى صدره . . . ومضت ادبث فى هذه السبيل إلى أبعد حد ، فرجته بلسان خادمها ألا يفزعه هذا النبأ ، وألا يكلف نفسه عناء الحضور العاجل . فليس أحب إليها من أن تخفف أعباءه ، وتزيل كل عقبة تعترض سبيل أعماله الجليلة ، وإنما أخبرته بهذا الحادث ليحيط به علماً . وله بعد ذلك أن ينسأه إذا شاء . . . وما عليه إلا أن يواصل كتاباته الرقيقة العذبة ، وأن يرجىء التفكير فى هذا الأمر حتى يعود إليها فى جولة الربيع ، حين يكون الوقت أنسب وأفسح .

ولعل آنا لم تكن مرتاحة فى قرارة نفسها لهذه العبارات السمحة الكريمة ، غير أنها أدعنت لرأى سيدتها .

« كل ما أرى يده هو هذه الرقة التى تفيض بها خطاباتك يا سيدتى العزيرة المحبوبة ، والتى ليس لى بها قبل مهما حاولت . . . وإن كنت

أقصد إلى نفس المعنى الذى تكتبين ، وأشعر حينما تفرغين من كتابة الخطاب أنك عبرت عن ذات نفسي أتم تعبير .

وأرسل الخطاب ، وأخلى بين السيدة ونفسها ، قالت على ظهر الكرسي وبكت وهى تغمغم « ليتنى أحمل ابنه فى أحشائى . . ليته كان !! ولكن كيف أسف إلى هذا الحد ، فتساورنى هذه الفكرة الدينئة ؟ » .

— ٥ —

وأثر الخطاب فى ( راي ) تأثيراً بالغاً . وكان تسامحها غير المنتظر أفضل فى نفسه من وقع الخبر ذاته . فالخطاب لا تعنيف به ولا تبيكيت . . وكل سطر من سطورهِ يفيض إخلاصاً وتضحية . . فبهرته هذه النبالة التى لم يك يحلم بوجودها فى بنات حواء . قال وهو يرتجف من فرط التأثر : « غفر الله لى . . لقد كنت ندلاً حقيراً . . وما كنت أدرى أنها بهذا القدر من السمو والنبيل » وأرسل إليها فى الحال خطاباً مطمئناً صارحها فيه بأنه لن يتخلى عنها بطبيعة الحال ، وأنه سوف يعد لها منزلاً فى مكان ما . وعليها أن تبقى مؤقتاً لدى سيدتها ، ما سمحت لها السيدة بذلك .

ولكن أصابها فى بيت سيدتها ما رتق صفوح حياتها . . وسواء أسمع السيد بآنباء ( أنا ) أم لم يسمع ، فإنه أمرها بمغادرة المنزل ، رغم رجاء زوجته وتوسلها ، فرأت أن تعود إلى كوخها فى السهل . . وتشاورت السيدة والخدام فى أمر تحرير الخطابات . فالفتاة لا تستطيع أن تحررها بنفسها ، وبات من غير اليسور أن تشركا فى تحرير الخطابات كما كانتا تفعلان ، لذلك رجحت الخدام سيدتها ، فليس لها من صديقة محترمه سواها ، أن تسلم



خطاباتها وترد عليها توا ، وترسلها إليها فيما بعد ، فتقرأها لها إحدى جاراتها ،  
إذا تهيأت لها جارة تثق بها . . ثم ارتحلت ( آنا ) وصندوقها إلى السهل .  
وهكذا وجدت ( اديث ) نفسها في مركز عجيب ، فهي مضطرة أن  
تراسل رجلا غير زوجها ، دون رقابة من المرأة ذات الشأن ، وأن تتحلل  
شخصية الزوجة في وصف حالة مادية جسدية لم تستشعرها على الإطلاق .  
وأن تبعث بهذا الوصف إلى رجل تورطت معه في علاقة عاطفية من أثر  
المراسلة ، أدت إلى نوع خفي من الميل ، إن يكن خياليا غامضا فهو قوى  
قاهر مع ذلك . فأخذت تفض كل غلاف وتقرأ كل خطاب وكأنما هي العنينة  
بما جاء فيه ، ثم ترد عليه من فورها ، بما يمليه قلبها ، لا بوحى من شخص آخر .  
ونعمت اديث الحساسة بنشوة الخيال في غياب الفتاة ، وأثار فيها هذا  
الغرام الذى وكّلت برعايته ، فيضا دفاقا من العاطفة لا يبلغ شأوه فيض .  
وكانت أول الأمر ترسل كل خطاب يصلها إلى ( آنا ) وترسل معه مسودة  
الرد الذى كتبه . . بيد أنها أخذت تجتزئ من هذه المسودات بأيسر  
قدر ، وكفت عن إرسال كثير من الكتب المتبادلة .

وكان ( راي ) شابا شهوانيا مسارعا إلى تلبية نداء الحاسة متأثرا  
— إلى حد ما — بما يشوب عصره من نزوات ومزالتى ، غير أن خلقه كان  
ينطوى في جوهره على شيء من الأمانة والاستقامة . وقد أحس بجنوؤ إلى  
الفتاة الريفية ، يزداد عمقا كلما آنس قدرتها على وصف أعمق أحاسيسها في  
أبسط الألفاظ . تفكر وتردد . . وصمم آخر الأمر على استشارة أخته ،  
وكانت آنسة تكبره بعض الشيء . . رقيقة العاطفة ، نبيلة القصد . أفضى

إليها بسره ، وعرض عليها خطابات ( أنا ) فقالت وهي تتأملها : « يبدو أن الفتاة على حظ من التعليم لا بأس به . . . وهي ذكية الفؤاد ، تفصح عن مشاعرها في أسلوب مطبوع . . . »

— « نعم . إن أسلوبها غاية في الرقة . . أليس كذلك ؟ . . . بارك الله في هذه المدارس الأولية . »

— « إنها تستهوى القلب . . . مسكينة »

وكان من أثر هذا الحديث أن كتب إليها رأى — وإن لم تشر عليه أخذه بذلك في صراحة — ووقع الخطاب باسمه الكامل . . . ولم يكن يدور في خاطر أحد أنه يفعل ذلك . . ذكر لها أنه لا يستطيع العيش بدونها . وأنه قادم إليها في الربيع ليطمئنها على مستقبلها ، فسينى بها . فهرعت مسر هارزها إلى كوخ ( أنا ) في السهل العظيم ، تحمل نبأ قبوله الصريح لما يتطلبه الموقف . فقفزت أنا من فرط الفرح ، كأنها الطفلة الصغيرة ، وذكرت لسيدتها رأيها التافه الساذج فيما يكون عليه الرد ، فلما عادت السيدة إلى المدينة أنفذت هذا الرأي ، ونفخت في الخطاب من روحها قوة وحرارة .

ولما ألقى القلم من يدها ، همست لنفسها وهي تتألم : « واأسفاه ! ( أنا ) تلك الفتاة المسكينة الطيبة البهاء . . . ليس لديها عقل تعرف به قدر هذا الشاب . وأنى لها ذلك ! أما أنا . . فليست أحمل طفله . »

ومضت المكاتبات بعد ذلك أربعة شهور ، وحل شهر فبراير فوصل

كتاب من رأى ، أشار فيه عرضاً إلى مركزه وآماله . قال أنه أول ما عرض عليها الزواج ، كان ينوى اعتزال مهنته التي لم تدر عليه حتى الآن سوى ربح ضئيل ، ولكن ما يشيع في خطاباتهما الفطرية الحلوة من ذكاء وعاطفة — وهو ما لم يدركه بيال — قد صرفه عن هذه الفكرة القائمة ، وأنه لعل ثقة من أن مواهبها واستعدادها ، وشيء من الدربة على التقاليد الاجتماعية السائدة في لندن ، يقوم هو بها أو تقوم بها وصيفة ، ستخلق منها الزوجة المثلى لصاحب مهنة محترمة ، ولو سما إلى مركز كبير القضاة . فكم من زوجة لهؤلاء لم تكن سيدة مطبوعة ، كالسيدة المطبوعة التي تم عنها كتب (آنا) فمهمت (مسز هارنهام) وقالت : « يا له من مسكين » .

وزادت شقوتها طوفاناً ، بقدر ما زاد قلبها افتتاناً ... فهي التي دفعت به إلى هذه الهوة السحيقة .. دفعت به إلى زواج يحطمه ويقضى على آماله . غير أنها ، رحمة بآنا ، لا تقدم على عمل يعوق الزواج ، وستأني (آنا) إلى ملشستر هذا الأسبوع ، ولكن السيدة لا تستطيع أن تطلع الفتاة على رد رقيق أتاها من فتاها .. ففيه حديث طويل عن الشخصية الثانية التي فتصبت مكان الشخصية الأولى .

وحضرت آنا فأنفردت بها سيلتها في حجرتها الخاصة . وبدأت آنا الحديث بقولها إنها سعيدة باقتراب موعد الزواج .

فقلت مسز هارنهام : « أرى يا آنا أنه يحسن بنا أن نحيطه بكل شيء علماً ، فنخبره بأني أحرر خطاباتك حتى لا يفاجأ بمعرفة ذلك بعد الزواج ، فيؤدى هذا إلى الفرقة ، وآهاننا بتضليله .

فصرخت أنا ضارعة : « كلا ياسيدتى العزيزة .. بالله إلا أقصرت عن هذا فانك إن فعلت أحجم عن الزواج .. وماذا عسى أن أصنع حينئذ؟ إن ذلك لقضاء على أي قضاء . وأنا أجد في تعلم الكتابة . وقد أحضرت معي كراسة الخط التي منحتني إياها فضلا وإحساناً . وأنا آتمرن على الكتابة في هذه الكراسة كل يوم ، ومع أني ألتق غاية المشقة في التعليم ، فإن المثارة ستؤتي ثمرتها آخر الأمر » .

فظفرت إديث إلى الكراسة . وكانت النماذج مكتوبة بخطها هي . وكل ما أحرزته الفتاة من تقدم كان تقليداً شأنها لخط السيدة . وحتى إذا حاكت خط سيدتها المنساب الجميل ، فأنى لها الخيال والإلهام !!

وقالت (آنا) : « إن أسلوبك آية في الجمال ، وأنت تترجمين عن مشاعري بما لا أستطيعه أنا . وأرجو ألا تتخلي عني في هذه المحنة » .

فأجابت إديث بقولها : « هذا حسن .. ولكنى .. أنا لا ينبغي لي أن أواصل الكتابة فيما أظن » .  
— « لماذا ياسيدتى »

فأجابت السيدة في صدق ، لكي تنفس عن عاطفتها المتأججة ، « لأن هذا يؤثر في نفسي »

— « لا يمكن أن يكون لذلك أي تأثير فيك » .

— « لماذا أيتها الطفلة ؟ » .

فالت (آنا) في صراحة مطلقة : « لأنك سيدة متزوجة .. »

— « طبعاً لا يمكن أن يكون له أي تأثير : » كذلك كان جوابها

التلطف ، وهي تستشعر ، برغم عتب ضميرها ، ألا يزال أمامها أن تكتب  
خطابين أو ثلاثة تنفس فيها عواطفها الحبيسة .  
— «ولكن يجب ألا تدخرى جهداً في كتابة اسمك كما كتبه أنا» .

— ٦ —

وسرعان ما كتب إليها ( راي ) عن الزفاف ، فقد صمم على سلوك  
أحكم السبيل إزاء عمل يراه من نزوات الخيال ، فتأقت نفسه إلى التجربة  
الكبرى . وود لو أقيمت حفلة الزفاف في لندن إيثاراً للكتمان . وودت  
إديث أن تقام في ملشستر . . أما أنا فلم يكن لها رأى . وتغلب رأيه ،  
وشغلت السيدة ، وقد اعترضتها نوبة من الحماسة الحزينة ، باعداد معدات  
الزفاف . واستولى عليها آخر الأمر شعور يأس حزين ، بأنها يجب أن تشهد  
مصارع أحلامها ، مهما يكن من شيء . وأن ترى للمرة الثانية ذلك الشاب  
الذي هزت كتاباته أعماق نفسها . فعرضت على ( آنا ) أن تسافر معها  
لترافقها في أثناء الحفل . . « ولترى آخرتها » كما قالت في طرح متكلف .  
وقبلت الفتاة هذا العرض ، شاكراً متمنة ، فليس لها من صديقة أخرى  
تستطيع القيام بدور الصاحبة والشاهدة أمام الشاب النبيل ، بحيث لا يشعر  
بأن مركزه الاجتماعي قد صدع صدعا لا سبيل إلى إصلاحه .

وفي صباح موحد من شهر مارس ، نزل ( راي ) من عربة ذات عجلات  
أربع ، عند باب مكتب التسجيل في الحى الجنوبي الغربي من لندن ، ومد  
ساعده فأنزل فتاتين في رفق ، هما ( آنا ) وصاحبتهما ( مسز هارنهام ) وبدت  
( آنا ) فتاة شائقة في الملابس الحديثة الطراز التي عاوتتها سيدتها على شرائها .

بيد أنها لم تبلغ شأو تلك الطفلة البريئة ، التي تراءت في ثوبها الريفي ، على صهوة الحصان الخشبي ، في سوق ملشستر .  
وكانت مسز هارنهام قد حضرت إلى لندن هذا الصباح في قطار مبكر ، وقال لهم أحد أصدقاء (راى) عند الباب . ودخل الأربعة مكتب التسجيل معاً . وكان (راى) قبل ساعة واحدة من هذا الموعد ، قد لقي زوجة تاجر النييد ، مرة واحد ؛ وكان لقاء عارضا في جلبلة المولد ، فلم يتعرف اليها إلا تعرفاً غاية في السطحية . ولم يستغرق تسجيل الزواج وقتا طويلا ، ولكن راى شعر ، على نحو ما ، أثناء إجراءات العقد ، أن تجاذباً خفياً يسرى بينه وبين صديقة (آنا) .

وحين تمت مراسم القران ، أو بعبارة أدق ، حين سجلت علاقة قائمة بالفعل ، استقل الأربعة عربة إلى منزل استأجره (راى) أخيراً في ضاحية جديدة ، مؤثراً إياه على منزل لم يعد يستطيع دفع إيجاره . وفي هذا المنزل الجديد قطعت (آنا) الكعكة التي ابتاعها راى في الليلة الماضية ، وهو عائد إلى منزله من دار لنكولن .

ولكنها لم تزد على ذلك شيئاً . فاضطر صديق راى إلى الانسحاب بعد برهة يسيرة ، فلم يبق في الواقع غير شخصين . . إديث وراى . . يتبادلان الرأى في إقبال وشنف وحيوية ، وظل الحديث لا يتعداهما ، وكانت (آنا) أشبه بحيوان مستأنس ، يستمع في تواضع إلى ما يقال ، ولكنه لا يفهم منه شيئاً . وبدا الفزع يساور راى حين أدرك ذلك ، وأخذ يضيق بزوجة غير قينة به . وأخيراً قال للسيدة دون أن يحفل بالإفصاح عما يساوره من ضيق :

« يامسز هارنهام ، إن حبيبتي مستثارة لا تدري ماذا تفعل أو تقول . ،  
وأظنها بعد هذا الحادث السعيد ، في حاجة إلى شيء من الهدوء ، قبل أن  
تستطيع تشنيف آذانتنا بهذه الفلسفة الرقيقة التي أتمحنتني بها في خطاباتنا .  
وكان العروسان قد اتفقا على أن يقوموا برحلة بعيد الظهر إلى (نولسي) .  
حيث يقضيان الأيام القليلة الأولى من شهر العسل . واقتربت ساعة السفر ،  
فطلب راى إلى زوجته أن تجلس إلى المكتب في الحجرة المجاورة لتحرر  
كتاباً لأخته ، فقد عاقبها وعكة عن حضور الحفل . . وتخبرها في الكتاب  
أن الحفل قد تم ، وتشكرها على هديتها الجميلة ، وأنها تأمل أن تتوثق  
بينهما أواصر المودة بعد أن أصبحت أختها كما هي أخت شارل . . وأردف  
ذلك بقوله : « دمجيه بأسلوبك الشعرى البارع . . لأنى أريد أن تكسب  
مودتها بصفة خاصة ، وأن تصبحا صديقتين حميمتين » .

فبدت أمارات القلق على (آنا) ، ولكنها انصرفت إلى الحجرة  
المجاورة . . ولبث راى يحدث الضيفة . . وطال غياب آنا فنهض زوجها  
فجأة وذهب إليها .

فوجدتها لا تزال منحنية على المكتب ، والدموع تفيض من مقلتيها ؛  
فنظر إلى الخطاب في شيء من الاهتمام ، وهو يأمل أن تطالعها روعة تعبيرها  
عن مودتها في هذا الظرف الدقيق .

ولشد ما كانت دهشته حين وجد أنها لم تكتب سوى أسطر قليلة ،  
في خط طفلة ، وتفكير أوزّه .

فقال مندهشاً : « آنا . . ما هذا ؟ » .

فأجابت بين زفرتها : « أنا لا أستطيع أن أكتب خيراً من هذا » .

— « كلا . . هذا مستحيل » .

فأصرت على ما قالت ، وتشبثت به تشبثاً باسماً حزيناً : « أنا لأستطيع . . أنا لم أكتب هذه الخطابات ياشارل . . وإنما كنت أخبرها بما أريدها أن تكتب . . ولكني أتعم بسرعة كبيرة يازوجي العزيز . . ولتغفر لي أني حبست ذلك النبأ عنك حتى الآن » .

وجثت على ركبتيها ، وأمسكت خاصره في ذلة ومالت بجذعها عليه .  
وظل واقفاً بضع دقائق ، ثم رفعها ، واستدار فجأة وخرج ، وأوصد الباب دونها .

وعاد إلى ( إديث ) في حجرة الاستقبال . . فقهمت أنه قد وقف على أمر أحزنه . . وظلت عيناها شاخصتين إلى عينيهِ . ثم قال في هدوء يعتريه شحوب : « هل يصدق حدسي . . لقد كنت تكتبين خطاباتها طول هذه المدة » . فقالت إديث : « كان هذا ضرورياً » .

— « هل كانت تملئ عليك كل كلمة تكتبينها إلى ؟ »

— « ليس كل كلمة »

— « كلمات قليلة ؟ »

— « نعم »

— « وهل كتبت قدراً كبيراً من هذه الصفحات كل أسبوع ، من

وحي شعورك ، وإن أمهرته باسمها ؟ »

— « نعم »



— « وهل كتبت كثيراً من هذه الخطابات في وحدتك ، دون أن

تتصلي بها ؟ »

— « نعم »

فاتجه إلى خزانة الكتب ، واتكأ عليها وقد وضع يده على وجهه ،  
فلما أحست إديث بما يرضيه من حزن ، امتقع وجهها وغاض دمه ، فقال لها  
هامساً : « لقد خدعتني وحطمتني »

فصاحت من فرط الألم ، وقد وثبت نحوه ، ووضعت يدها على كتفه :  
« لا تقل هذا .. فإني لا أطيق » .

— « أتخذهينى بهذه الخطابات الممتعة ؟ لماذا تفعلين ذلك ..

لماذا ؟ .. ؟

— « بدأت الكتابة شفقة بها .. فإذا عساي أن أفضل غير ذلك ،  
إنقاذاً لفتاة ساذجة كهذه من الشقاء . ولكنى أعترف بأني واصلت الكتابة  
امتاعاً لروحي »

فرفع عينيه إليها وسألها : « وما سر هذه المتعة الروحية ؟ »

قالت : « هذا ما يجب ألا أبوح به »

وظل ينظر إليها ، فرأى شفقتها ترتجفان تحت نظراته النافذة .. وعينها  
تغرورقان بالدموع وتعضضان ، ثم انتحلت جانباً وقالت إنها يجب أن تذهب  
إلى المحطة ، لتدرك قطار العودة .. ورجت أن تُستدعى عربية نقلها  
إلى المحطة .

فاقترب منها راى وأمسك بيدها فلم تمنع : « أفكرين في الرحيل ؟

كيف ؟ .. إننا صديقان ، بل حبيبان مخلصان .. بيننا ودنمته المراسلة «

— « نعم . وهذا ما أحسب » .

— « والأمر أبعد من هذا أأرا » .

— « وكيف ؟ »

— « هذا طبيعي .. ولا فائدة من الإنكار .. فأنا زوجى قانونا

وعرفا .. أما أنت فزوج روحى وإلف نفسى ... أنت لا غيرك من

النساء » .

— « صه » .

— « لن أسكت . لماذا لا تعترفين بالحقيقة كلها ، بعد أن اعترفت

بنصفها ؟ لقد توثقت الأواصر بينك وبينى ، لا بينها وبينى .. والآن

فلا كتف بذلك .. ولكن أيتها الحبيبة القاسية . إن لى عليك حقا » .

لم تسأله عن هذا الحق ، فاجتذبت إليها وقال وهو يضغط على الألفاظ ،

ليؤكد المعنى الذى يرمى إليه : « إذا كانت الخطابات من نسج الخيال فاعطنى

خذك فقط ، أما إذا كانت من فيض القلب ، فامنحني شفتيك .. وهذه

هى المرة الأولى والأخيرة » .

فأدارت له فاما فقبلها قبلة طويلة ..

فقالت باكية : « وهل تغفر لى ؟ »

— « نعم »

— « ولكنى حطمتك »

فقال وهو يهز كتفيه : « وماذا يهم .. لقد نلت الجزاء الذى أستحق »

ثم تراجمت وجففت عينها ، ودخلت تودع آنا التي لم تكن تتوقع أن تسافر سيدتها بهذه السرعة . وكانت لا تزال تقدح زناد الفكر لتكتب الخطاب .

وتبع راي إديث وهي تهبط الدرج . ولم تمض ثلاث دقائق حتى كانت في عربة تقلها إلى محطة وأرلو .

ثم عاد إلى زوجته يقول في رقة : « لا يهملك الخطاب اليوم يا آنا .. ارتدى ملابسك .. فنحن أيضا يجب أن نبادر بالرحيل » .

فانتعشت روح الفتاة الساذجة ، وأحسّت بأنها صارت له زوجا ، وبدا عليها السرور والغبطة ، حين وجدت زوجها وقد تكشف له السر ، رفيقاً بها كما كان . ولم يدر لها في خاطر أن زوجها يخال أنه في سفينة رق ، مصفد بالأغلال ، محكوم عليه ، وهو ابن لندن الأنيق ، أن يقضى حياته مع هذه الفلاحة الأمية التي وضعت إلى جانبه .

وعادت إديث في نفس اليوم إلى ملشستر ، وقد ارتسمت على وجهها أمارات الحزن المرير ، وكانت شفتها لا تزالان ترتعشان من ضغط قلبته اليأس .. لقد تبدد حلمها العاطفي الجميل .. وبلغت محطة ملشستر في العسق ، وكان زوجها ينتظرها . ولكنه كان مشغولا بأعماله ، وكانت هي مستغرقة في همومها ، فلم ير أحدهما صاحبه . فمادرت المحطة وحدها .

وسارت سيراً آليا إلى المنزل دون أن تستدعي عربة ، وحينما دخلت منزلها لم تحتمل ما يخيم عليه من سكون ، وذهبت في الظلام إلى حجرة آنا ، ولبثت تفكر هنيهة ثم عادت إلى غرفة الاستقبال .

ودون أن تحس بما تفعل ، استلقت على الأرض في ذلة وهوان ، وهي لانزال تردد : « لقد حطته . . وقضيت عليه . . لأنى لم أشأ أن أخونها »  
وفي خلال نصف ساعة فُتِح باب الحجرة :

— « من القادم ؟ » كذلك كان سؤالها الذى ألقته فى دعر  
والحجرة مظلمة .

فرد عليها التاجر الوقور : « زوجك . . من عسى أن يكون ؟ » .  
— « أه زوجى .. » وهممت لنفسها : « لقد نسيت أن لى زوجا » .  
وتابع الزوج حديثه قائلا : « لم أرك فى المحطة .. هل رأيت ( آخرة آنا )  
واطمأنت عليها ؟ أرجو ذلك . . لأن حالتها كانت غاية فى الحرج » .  
— « نعم لقد تزوجت آنا » .

وبينا كانت إديث لا تزال فى رحلتها إلى ملشستر ، كانت ( آنا )  
وزوجها جالسين إلى نافذتين متقابلتين فى عربة من عربات الدرجة الثانية ،  
فى قطار ذاهب إلى نولسى ، وكان فى يد زوجها دفتر مليء بأوراق مغضنة ،  
مكتوبة بخط أنيق . وجعل يفتح هذه الأوراق واحدة إثر واحدة . .  
ويقرأها فى صمت . . ثم يتهد » .

— « ماذا تفعل يا شارل العزيز ؟ » .

كذلك ابتدرته زوجته المتوجسة ، وهى إلى جوار النافذة الأخرى ،  
ثم اقتربت منه فى تهيب وحذر وكأنها تقترب من إله . .  
فأجابها فى استسلام حزين « أعيد قراءة الخطابات الحلوة . . المهوررة  
بتوقيع ( آنا ) » .

# ارضا الزوجة

- ١ -

في عصر يوم شتوى ملبد بالغيوم ، أخذ الظلام ينتشر تدريجاً داخل كنيسة القديس جيمس في مدينة ( هافنبول ) وكنا في يوم الأحد ، وقد انتهت الصلاة لتوتها ، ووارى القسيس وجهه بيديه وهو على المنبر ، وتنفس المصلون الصعداء ، ونهضوا من ركعتهم لينصرفوا .

وساد السكون لحظة ، حتى سمع اصطخاب البحر وراء سور الياه ، ثم قطع السكون صوت أقدام الكاتب وهو يتجه إلى الباب الغربي ليفتحه فيخرج منه المصلون . ولكنه قبل أن يبلغ الباب ، رفع المزلاج من الخارج وتراءى على صفحة الضوء هيكلم مظلم يرتدى زى بحار .

فاتحى الكاتب ناحيته ، وأوصد البحار الباب في رفق ، وتقدم في صحن للكنيسة ثم وقف على درج المذبح . فقطع القسيس صلاته الخاصة البصيرة التي كان يؤديها بعد صلاته للناس ، ونهض على قدميه ، وحدق في الرجل الدخيل .

قال البحار للقسيس بصوت واضح سمعه الجميع : « لا تؤاخذنى ياسيدى فقد أتيت لأحمد الله على نجائى من الغرق بأعجوبة ، ولعل من الخير أن أفعل ذلك ، إذا لم يكن لديك اعتراض » .

فقال الأمتقف فى تردد ، بعد أن سكت لحظة : « ليس لدى أى اعتراض بطبيعة الحال » . غير أن هذه الرغبات تُبدي — عادة — قبل

الصلاة ، حتى يُتلى الدعاء المناسب في صلاة الشكر العامة . ولكن إذا شئت ، قرأنا عبارة الشكر التي تتلى بعد العواصف البحرية » .  
فقال البحار : « فليكن ما ترى » .

أرشد الكاتب البحار إلى صفحة من كتاب الصلوات فيها دعاء الشكر ، وبدأ الأسقف قراءتها ، وأخذ البحار وهو راكع ، يردد الدعاء بعد الأسقف كلمة كلمة ، في صوت واضح .

ولبت الناس مشدوهين لا يتحركون ، ثم ركعوا دون تفكير ، واستمروا يتأملون البحار ، وكان يركع وحده في منتصف درج المذبح ، وقد ولى وجهه قبل المشرق ، ووضع قبعته إلى جانبه ، وهو لا يحس بتاتا أن أبصارهم قد علقت به .

ولما انتهت صلاته نهض ، ونهض الناس أيضاً ، وخرج الجميع من الكنيسة في وقت معا ، وما إن خرج البحار ، وانعكست على وجهه بقية من ضوء النهار ، حتى أخذ الأهالي القدامى يعرفون فيه (شادراك جوليف) وهو شاب من أبناء المدينة غاب عنها سنوات عدة . وقد مات أبواه ، فاشتغل منذ حداثة بالملاحة في خط نيوفد ندلانند .

وجعل يتحدث إلى هذا وذلك من أهل المدينة في أثناء سيره ، فأخبرهم أنه في خلال مدة غيابه ، قد صار قبطاناً وصاحب قارب ساحلي ، أتقنته العناية الإلهية كما أتقنت صاحبه ، وسرعان ما تقدم إلى فتاتين خرجتا من الكنيسة قبلة ، وكاتتا في صحنها حين دخوله ، ترقبان حركاته في اهتمام عميق . وأخذتا يتحدثان في عودتهما من الكنيسة . كانت إحداهما ضئيلة

رقية ، والأخرى طويلة عريضة واعية . فجعل كابتين جوليف ينقل بصره بين خصلات الشعر المتهدلة ، وكثفيهما ، وظهريهما حتى الكعبين .

— سأل جازه همساً : « من عسى تكون هاتان الفتاتان ؟ »

— « الصغيرة ! اميلي هانتج ، والطويلة جوانا فيبارد »

— « أوه تذكرتهما الآن تماما »

اقترب منهما ، واسترق إليهما النظر والبشر يعلو وجهه ، وقال وهو يصوب عينيه المشرقتين السمرائين إلى إحداها : « اميلي ألا تعرفينني ؟ »

فأجابت اميلي في استحياء : « أظن أنى أعرفك يا ماستر جوليف »

وحدجته الأخرى بمنظرة من عينيها السوداوين ، فاستطرد يقول :

« أما وجه مس جوانا فلا أذكره تماما ، وإن كنت أعرف أمرتها وألها »

ثم ساروا معا يتحدثون ، وجعل جوليف يقص عليهم خبر نجاته

العجيب ، حتى بلغوا (عظفة سلوب) وكانت تقيم بها اميلي هانتج ، فودعتهما

بإيمانه وابتسامته . وسرعان ما افترق البحار وجوانا . ولم يكن له غاية

يسعى إليها أو موعد يحدد وجهته ، فعاد أدراجه صوب منزل اميلي هانتج ،

وكانت تقيم فيه مع أبيها ، الذى يدعو نفسه محاسبا ، وكانت اميلي تشرف

على محل لبيع الورق ، يدر عليهما ما ينفقان ، حين ينقطع الأب عن العمل .

ودخل جوليف منزل اميلي ، فوجد الأب وابنته على أهبة تناول الشاي فقال :

« لم أكن أعلم أن هذا وقت الشاي . . . سأتناول قدحا بكل سرور »

ولبت فترة تناول الشاي ، وفترة طويلة بعدها ، يروى أبناء مغامراته

في البحر . وأقبل كثير من الجيران ليستمعوا إلى أخباره ، فطلب إليهن

الدخول . والعجيب في الأمر أن قلب إميلي قد وقع هذه الليلة في حبال  
هذا البحار . وما هو إلا أسبوع أو أسبوعان ، حتى توثق بينهما التفاهم والود .  
وفي ليلة مقمرة من الشهر التالي كان شادراك يسير في الطريق  
المستقيم ، الذي يمتد شرقا ويؤدي إلى ضاحية مرتفعة ، تنتظم منازل أحدث  
طرازا من منازل المدينة ، إذا جاز أن نصف شيئاً في هذه الميناء العتيقة  
بأنه حديث الطراز ، فترأى شبح فتاة تسير أمامه وتتلفت خلفها ، فحسبها  
إميلي . ولكن ما كاد يتقدم نحوها حتى عرف أنها ( جوانا فييارد )  
فياها تحية رشيقة وسار إلى جانبها .

قالت له : « امض في سبيلك لثلاث غار إميلي » . ولم يبد عليه أنه أخذ  
بهذا الرأي ، فقد سار إلى جانبها .

ولا يذكر شادراك بما قاله أو عمله في هذه النزهة ، غير أن ( جوانا )  
قد غضبته من غريمتها التي تصغرها سنا ، وتشوها دعة ورقة .

ومنذ ذلك اليوم توثقت المودة بين جوليف وجوانا وتراخت بينه  
وبين إميلي . وسرعان ما سرى نبأ في الميناء أن ابن جوليف الذي عاد من  
البحر ، سيتزوج جوانا . . . ويدع إميلي يذوب قلبها حشرات .

فلما ذاع هذا النبأ ارتدت جوانا ملابس الخروج ذات صباح ، وولت  
وجهها شطر منزل أميلي في الحارة الصغيرة ، فقد بلغت مسامعها أنباء الحزن  
العميق الذي اشتمل على صديقتها ، وأنها ضميرها لأنها غضبت فتاها .

لم تكن ( جوانا ) راضية كل الرضى عن البحار ، وإن طربت نفسها  
لجفاوته بها ، وكانت تتوق إلى الحياة الزوجية ، ولكنها لم تحس نحوها بالحب



العميق أبدا . فهي فتاة طموح . وليس مركزه الاجتماعي مغريا ، فهو لا يكاد يعدل مركزها . والفرصة سانحة أبداً لأن تزوج الفتاة الجذابة من طبقة أعلى من طبقتها . لذا قرأها على أن تدع ردشادراك لإميلي ، إذا كان الأمل قد بلغ منها مبلغه . فكتبت — لهذا الغرض — خطاباً لشادراك ، حملته في يدها لترسله إليه ، إذا اقتنعت بأن صاحبها في محنة حقا .

دخلت جوانا في عطفة سلوب ، ودلقت إلى دكان الورق الذي كان تحت مستوى الطوار ، وكان من عادة والد إميلي أن يتغيب عن منزله في هذه الساعة ، ويظهر أن إميلي نفسها ليست بالمنزل . إذ لم يحس أحد بمقدم الزائرة . وكان الزبائن من الندرة بحيث لا يضير صاحبة المتجر أن تتغيب فترة قصيرة . فلبثت جوانا في الدكان الصغير الذي نسقت فيه إميلي بضائعها بذوقها الرشيق ، كما يفعل النساء عادة ، وكانت البضائع تافهة ، ولكنها تشغل فراغ الدكان . ثم رأت شبحاً يقف خارج النافذة ، ويتظاهر بتأمل الكتب ذات البنسات الستة ، ورزم الورق ، والمطبوعات المعلقة في خيط .. إنه كابتن شادراك جوليف ، ينظر إلى داخل المتجر ليتأكد من أن إميلي بمفردها .

فكرهت جوانا أن تلقاه في مكان يعبق بروح إميلي ، وتسلت في خفة من باب يصل المتجر بغرفة الاستقبال . وكانت لا تتحرج من أن تفعل ذلك لأن إميلي صديقة حميمة .. ولا كلفة بينهما .

دخل جوليف المتجر . ونظرت جوانا من خلال ستار رقيق يغطي الباب الزجاجي ، فرأت ما شعر به الشاب من خيبة الأمل حينما لم يجد

إمبلى . وأوشك أن ينصرف، لولا أن قدمت إمبلى . . وكانت حثيثة الخطى ، رأت جوليف فأجفلت ، وكأنما تريد العودة فقال لها : « بالله لا تبهزلى يا إمبلى . . ماذا يخيفك ؟ »

« لست خائفة يا كابتن جوليف . . كل ما فى الأمر أنى رأيتك فجأة ، فوثبت برغضى »

وكان صوتها ينبىء أن وثبة قلبها كانت أقوى من وثبة باقى جسمها .  
فقال لها : « لقد عرّجت عليك فى طريقى . . »

فقالته وهى تسرع وراء الخزانة : « أتريد بعض الورق ؟ »  
— « لا . لا يا إمبلى . لماذا تذهبين وراء الخزانة ؟ لماذا لا تبقين إلى جانبي ؟ يبدو أنك تكرهينى »

— « لست أكرهك . وكيف أستطيع ذلك ؟ »

— « إذن فتعالى تتحدث »

فأطاعت إمبلى إشارته . وهى تضحك ضحكة عصبية ، واقتربت منه حتى وقفت إلى جانبه ، فى الجزء الخالى من المتجر . قال : « أنت عزيزتى »

— « لا تقل ذلك يا كابتن جوليف . . فهذه كلمة توجه إلى شخص آخر »

— « آه . . إنى أعرف ماتقصدين . لكن يا إمبلى أقسم لك بحياتى أنى لم أعرف حتى هذا الصباح أنك تحفلين بى أقل احتفال ! ولو عرفت ذلك من قبل ، لكان لى شأن غير ما كان . . إنى أحسب نوحو جوانا أجمل

الأحاسيس ، ولكنى أعلم من بادية الأمر أنها تعدنى صديقاً .. لا أكثر .  
أما الآن فقد وجدت الفتاة التى كان ينبغى أن أطلب يدها . فأنت تعرفين  
يا إمبلى أن الرجل حين يعود من البحر ، يكون أعشى البصر كأنه الخفاش .  
فلا يميز بين النساء . . كلهن فى نظره سواء ، فيقتنع بأول صيد سهل منها ،  
دون أن يفكر أحبه المرأة حقاً أم لا تحبه ، أو أنه قد يجب عما قليل فتاة  
خيراً منها . وقد هنا إليك فؤادى من أول لحظة ، ولكنك أسرفت فى  
التحفظ ، وأمعنت فى الحياء ، فحسبت أنك لا تريدن أن أضايقك ، فذهبت  
إلى جوانا »

فقلت إمبلى بصوت مختمق : « بعض هذا ياستر جوليف . . .  
إنك ستزوج من جوانا فى الشهر القادم . . ومن الخطأ أن . . . »  
فقال والدمع يترقق فى عينيه ، وقد طوق جسمها الضئيل بذراعيه قبل  
أن تنتبه له : « إمبلى ، حبيبتى »  
فامتقع لون جوانا من وراء الستار . وحاولت أن تشفى عينيها عن النظر ،  
ولكنها لم تستطع .

-- « أنت أنت من أحب كما ينبغى للرجل أن يحب شريكة حياته .  
وقد علمت من حديث جوانا لى أنها تعزم أن تدعنى لك ! انها تريد أن  
تنزوج من شخص أعلى منى ، ولم توافق على طلبى إلا شفقة بى . . فتاة  
جميلة طويلة مثلها لا تتشوف إلى الزواج من بحار . وأنت أصلح الناس لى »  
وضمها اليه وقبلها ثم قبلها ، وجسمها اللدن يرتعش بين ذراعيه

— « ترى ؟ هل أنت واثق أن جوانا سوف تخلى سبيلك ؟ أو اثق أنت ..

لأن ... »

— « أعلم أنها لا ترضى أن تشقينا وأنها ستخلى سبيلي »

— « أوه .. أرجو ذلك .. أرجو .. لا يطل مكثك هنا يا جوليف »

لكنه تلكأ حتى أتى شخص يبتاع شمعة ختم بينس واحد فانصرف .

أضرم هذا المشهد لظى الغيرة في قلب جوانا . فبحشت عن مهرب ،

وصممت على ألا تعلم امبلي بأمر زيارتها . فخرجت في حذر من حجرة

الاستقبال إلى المر ، وتسالت من باب المنزل الخلفي إلى الشارع ، دون

أن يحس بزيارتها أحد .

وقلب مشهد الغزل الذي رآته ، كل ما عقدت عليه العزم من قبل .

وصارت لا تستطيع أن تضحى بشادراك أو تتخلى عنه . وما إن وصلت إلى

منزلها حتى أحرقت الخطاب . وطلبت إلى أمها أن تخبر كاتين جوليف إذا

أتى لزيارتها ، أنها مريضة لا تستطيع لقاءه

ولكن شدراك لم يأت لزيارتها ، بل أرسل إليها كتابا يصف فيه

حقيقة شعوره ، وصفا بسيطا . ويقول إن عاطفتها نحوه لا تعدو الصداقة ،

ولعل هذا مما ييسر إلغاء الخطبة .

ولبث في منزله فترة طويلة ، يتأمل الميناء والجزيرة التي تليها ، وهو

ينتظر أن يأتيه رد ، ولكن الرد لم يصله ، وأرخص الليل سدوله ، فتقل عليه

الانتظار ، ولم يبالك أن انحدر إلى الشارع الرئيسي ليزور جوانا ، ويعلم مضيره .

وهناك أخبرته أمها أن جوانا مريضة لا تستطيع لقاءه ، وأن مرضها يرجع

إلى رسالة بعث بها إليها ، فأصابتها بنجراح بعيدة الغور ..

فقال لها : « لعلك تعرفين فحوى الرسالة يا مسيز فييارد ؟ »

فقلت إنها تعرفها ، وأن هذه الرسالة قد وضعتهما في موقف غاية في الايلام ، فحشي شادراك أن يكون قد ارتكب خطيئة ، وحاول أن يستدرك خطأه ، فقال ان رسالته إذا آلمت جوانا فهذا يرجع إلى أنها لم تفهم مراده . فقد حسب جوانا لا تحفل به ولا ترضاه زوجا ، وأنها ستسر بتخلصها منه . أما وهي تريده ، فهو يعد نفسه مقيدا بكلمته . وكأن الرسالة لم تكن « وجاءته في الصباح التالي رسالة شفوية من جوانا تطلب اليه فيها أن يمر عليها في المساء ليصطحبها إلى منزلها حيث تكون في أحد المجتمعات ، فقام بما طلبت اليه ، وبينما هما يسيران وذراعها في ذراعه قالت له : « كل شيء بيننا كما كان . والرسالة قد أرسلت خطأ ، أليس كذلك يا شادراك ؟ »

— « كل شيء كما كان .. إذا رأيت ذلك »

فهمست وقد تصلبت ملامحها وهي تفكر في اميلي : « أرجو أن يعود

كل شيء كما كان »

وكان شادراك رجلا متدينا ذا ضمير ، يفى لوعده وفاءه لحياته . وما هي إلا أيام حتى عقد القران . وكتب جوليف لاميلي في أرق لفظ ، انه أخطأ في فهم عواطف جوانا ، حين حسب أنها لا تحفل به .

ماتت أم جوانا بعد مضي شهر على زواج ابنتها . واضطر الزوجان أن يوجها اهتمامهما إلى النواحي العملية من الحياة .. ولم تكن تطبيق فكرة

جوع زوجها إلى البحر ، بعد أن فقدت والدتها ، لكن بقيت مشكلة ....  
فإذا عساه يصنع هنا ؟

وقرر أيهما أخيرا على أن يشتريا دكان بدال كان معروضا للبيع في ذلك  
الوقت . وكان شادراك لايدرى عن التجارة شيئا ، ولا تعرف جوانا عنها  
إلا القليل الضئيل ، ولكنهما كانا يأملان أن يتدربا عليها شيئا فشيئا .  
ووفقا كل جهودهما على إدارة هذا المتجر ، واستمررا كذلك سنوات  
طويلة متوالية ، دون أن يصيبا نجاحا كبيرا . وأنجبا طفلين ، وكانت جوانا  
تجبهما حبا بلغ درجة العبادة ، وإن لم تشعر بحب شديد نحو زوجها . .  
فأحاطت الطفلين بكل تفكيرها وأشواقها وآمالها . بيد أن المتجر لم ينجح ،  
وتبددت أحلامها الحلوة ازاء الواقع المرير ، فلم تعلمها تعليما راقيا ، وتعددها  
لمهنة محترمة كما كانت تأمل ، بل علمتهما أبسط أنواع التعليم . وإن كانت  
إقامتهما قرب البحر قد زودتهما بخبرة في الفنون البحرية التي يولع بها  
الصبيان عادة في هذه السن .

ولم يكن في خارج حياتهما الخاصة ما يثير اهتمامهما إلا زواج إميلي .  
ففي مصادفة من تلك المصادفات العجيبة التي تكشف عن القابلات المعجزات ،  
بينما تحجب الظاهرات البارزات ، رأى أميلي أحد التجار الناجحين في  
المدينة ، فلأت شغاف قلبه . وكان هذا التاجر أيمًا يكبر أميلي بوضع سنين ،  
وإن كان لا يزال في ربيع العمر .

وكانت إميلي قد أعلنت باديء الأمر أنها لن تتزوج مطلقا . ولكن  
مستر لستر ثابر مثابرة هادئة رفيقة ، حتى رضيت الفتاة ، وأنجبت هي الأخرى

طفلين ، كبرا وحالفهما التوفيق ، فقالت إميلي إنها لم تك تحلم بأنها ستعيش حتى تحظى من السعادة بهذا النصيب .

وكان ذلك التاجر الثرى يقطن قصرا من القصور الفسيحة المتينة البنيان يطل على الشارع الرئيسى ، ويكاد يواجه متجر البقالة الذى يملكه جوليف . وكان مما يؤذى شعور جوانا أن تشاهد المرأة التى اغتصبت مكانها — مجرد الاغتصاب — وهى تطل من منزلها الفخم على الدكان المتواضع ، بما فيه من أقراص السكر المغبرة ، وأكوام الزيب ، وعلب الشاى . . وهى البضائع التى قدر عليها أن تتولى شأنها بعد أن تضاعل المتجر وتدهور ، وأضطرت جوانا أن تشتغل فيه بنفسها . وكان يحز فى نفسها ويشير حفيظتها أن اميلي لستروهى جالسة فى حجرة استقبالها الواسعة المطللة على الشارع ، تستطيع أن ترى جوانا ، صاعدة هابطة وراء الخزانة ، تلبيه لطلبات زبائن البنس والبنسين ، الذين يتحكمون فيها تحكما لا تملك غير الترحيب به . وإذا صادفوها فى الطريق وجب عليها أن تجاملهم وتتأدب معهم ، بينما تسير إميلي مختالة ، وإلى جانبها ولداها ومريبتها ، وتتحدث إلى أرقى الأوساط . كان هذا ما جنته جوانا حين استأثرت بشادراك — ولم تكن به مولعة — ومنعت عاطفته أن تتجه وجهة أخرى .

وكان شادراك رجلا طيبا أمينا ، وهب زوجته قلبه وجهده . . وكان الزمن قدنهه هيامه بإميلي ، بعد أن تجاوز الدور الخيالى من أحوار حبه ، وصار حبه إلى صداقة ، وكذلك صار حبا إياه . ولعل جوانا كانت تشعر بشيء من الرضى لو وجدت إميلي سببا للغيرة منها ، ولكن هذا الاستسلام المطلق

الذي قابلت به إميلي وشادراك نتيجة تديرها ، هو الذي أجب سخط جوانا وأثار تبرمها .

ولم يكن شادراك على حظ من تلك الموهبة اليسيرة ، التي تعين تاجراً صغيراً على أن يقف في وجه منافسيه الكثيرين . فكان إذا سأله سائل أينصح حقيقة بشراء تلك المادة التي تستعمل في الحلوى بدل البيض ، (والتي ألح أحد العملاء عليه حتى قبلها) . أجب بأن من لم يضع بيضا في الحلوى لم يجد طعمه فيها . وإذا سأله سائل هل بنه اليميني من اليمين حقيقة ؟ قال عابسا : « كما هو مفهوم في الدكاكين الصغيرة » وهذه طريق غير الطريق المؤدية إلى الثروة والنجاح .

وحدث في يوم من أيام الصيف ، والمنزل الفخم يعكس حرارة الشمس اللافتة على المتجر ، ولم يكن به غير الزوج والزوجة ، أن نظرت جوانا إلى باب إميلي فرأت عربة زائر ثرى تقف بالباب . . وكانت جوانا قد أحست في نظرات إميلي بشيء من التفضل والإشفاق . فهمست لزوجها في حسرة وأسى : « الحق أنك لست رجل أعمال يا شادراك ، فأنت لم تهياً للتجارة . ويستحيل على الإنسان أن يثرى من عمل يقفز إليه قفزاً كما فعلت أنت »

فوافقها جوليف على هذا الرأي كما كان يوافقها على كل ما تذهب إليه . وأجاب في سرور « لا يعنيني أن أجمع ثروة ، فأنا سعيد قانع ، ونستطيع أن نحصل على أرزاقنا على نحو ما » وعادت تنظر إلى المنزل الكبير من خلال ستار من زجاجات الحلل ، فقالت في مرارة : « نحصل على



الرزق .. لا بأس .. ولكن تأمل إميلي ليستر كيف تعيش في بسطة من العيش ، تلك التي كانت فقيرة معدمة . وسيذهب ولداها إلى الكلية من غير شك . بينما يذهب ولداك إلى مدرسة الأبرشية الحظيرة « فعاودته ذكرى إميلي وقال بروح مرحّة : « أنت صاحبة الفضل عليها يا جوانا .. فقد قطعت ما بيني وبينها من عبث . فاستطاعت أن تقبل الزواج من لستر »

فاستشارتها قوله ، وذهبت بلبها ، فقالت تتوسل في حزن ضارع مرير « لا تتكلم عن الماضي . ولكن فكر — من أجل الأطفال وأجلى .. إن لم يكن من أجل نفسك — في طريقة تزيد بها ثروتنا ؟ »

فقال وقد عادت إليه علامات الجذ « الحق أني شعرت دائماً أني غير صالح لهذا العمل ، وإن لم أصرح بذلك أبداً .. الظاهر أني محتاج إلى ميدان أرحب ، ومجال أفسح ، أخبط فيه حيث لا أصدقاء ولا جيران . فاني إن ساكت طريق الخاصة ، وصلت إلى الثروة كما يصل إليها أي إنسان »  
— « ليتك تفعل ، ما هي طريقك الخاصة ؟ »

— « العودة إلى البحر »

وكانت هي التي أوحى إليه بالتعبوع في عقرب داره ، فهي تكره حياة زوجة البحار ، التي تشبه حياة الأيامي . ولكن طموحها إلى الثروة كبح هذه الكراهة فقالت :

— « أتظن النجاح يحالفك إذا سلكت هذه الطريق ؟ »

— « أنا واثق أنه لا يحالفني في سواها »

— « آهجن إلى البحر يا شادراك ؟ »

— « ليس لما فيه من متعة وسعادة ، فليس فيه ما أستمتع به هنا في منزلي . والواقع أني لأحب البحر الآن ولم أحبه قبل الآن ، ولكني أعود إليه لإثرائك وإثراء ولديك . وليس من طريق غيره لإثراء رجل مثلي ، ولد بحاراً ، وترعرع في البحر .

— « وهل ينقضى وقت طويل قبل أن تحصل على ثروة ؟ »

— « هذا يتوقف على الظروف . ربما حصلت عليها عاجلاً »

وفي الصباح التالي أخرج شادراك من إحدى الخزائن سترة البحار التي كان يرتديها حينما عاد من البحر ، ونفض عنها التراب والعبث ، ثم لبسها وتوجه إلى رصيف الميناء . وكانت التجارة لا تزال تسير بين الميناء وبين نيوفونديلاند . . ولكنها صارت أشق مما كانت في سالف العهد .

ولم يمض وقت طويل حتى اشترى بكل ما يملك جزءاً من سفينة شراعية ، وُعين قبطاناً لها ، وأمضى بضعة أشهر يتاجر بين الموانئ الساحلية . وأخذ يجلو عن نفسه صداً البحر الذي علاه في دكان البقالة . وما وافى الربيع حتى أبحرت السفينة إلى نيوفونديلاند .

ظلت جوانا تعيش مع ولديها في المنزل ، وكانا قد كبرا ، وصارا صبيين قويين ، يشغلان بشق الأعمال في الميناء وما حولها .

وكانت أمهما الموهلة بهما تقول لنفسها : « إن اشتغالهما في الميناء لا يضير . . مؤقتاً . . إذ لا مندوحة عن ذلك في حالتنا الراهنة . أما حين يعود شادراك وتكون سنهما يومئذ لم تعد السابعة عشرة أو الثامنة عشرة ، فسيفادران العمل في الميناء ، ويعهد بتعليمهما إلى مرب خاص ، فيكونان بفضل مال

أيهما أشبه بأبناء السادة ، كإبنى إمبلى الراقين الغاليين ، اللذين يعلمان الجبر  
واللغة اللاتينية »

حان وقت عودة شادراك ثم حل اليوم المنتظر .. ولكنه لم يصل ..  
وقيل لجوانا ألا تدع نفسها فريسة للقلق ، فواعيد السفن الشرعية غير  
مضبوطة .. وقد صح ما قيل . فبعد شهر من الموعد المرتقب ، أعلن فى وقت  
متأخر من ليلة رطبة ، أن السفينة قد اقتربت ، وسرعان ما سمع وقع أقدام  
زوجها فى الطريق ثم فى داخل المنزل . وكان الولدان قد خرجا لاستقباله ،  
دون أن يصادفاه فى الميناء ، وكانت جوانا تجلس بمفردها .

وما كادت تهدأ نشوة اللقاء الأولى ، حتى ذكر جوليف أن تأخره يرجع  
إلى أنه اشترك فى مضاربات درّت عليه مالا وفيراً ، وأردف ذلك بقوله : « لقد  
أليت على نفسى أن أحقق رجاءك ، ولعلك تعترفين بذلك ، وعندئذ أخرج كيساً  
ضخماً من قماش خشن ، مليئاً مكتنزاً كأنه كيس المارد الذى ذبحه جاك .  
فك الكيس ورجه ، ثم نفذه فى حجرها وهى جالسة فى كرسيها الواطئ إلى  
جانب المدفأة ، فهوت كمية وافرة من الجنيهات الذهبية أحدثت صوتاً مبالغاً  
وهبطت بحجر جوانا إلى الأرض .

« تفضلى .. لقد قلت يا عزيزتى انى سأمنح .. فهل صدقت ؟ » .

غادرت وجهها النشوة الأولى ، التى علتته أول مارات المال ، فقالت

« هذا مبلغ لا بأس به .. ولكن أهذا كل ما هناك » .

— « كل ما هناك ؟ أتدركين يا عزيزتى جوانا أن هذه الكومة تبلغ

ثلاثمائة جنيه ؟ إنها ثروة » .

« نعم نعم . ثروة بالنسبة للبحر .. أما بالنسبة للبر ! »  
ولكنها اقتصرت مؤقتا عن التفكير في المال . وما لبث أن  
أقبل ولداها .

وفي يوم الأحد التالى أعاد شادراك صلاة الشكر ، ولكنه سلك فيها  
الطريقة المألوفة هذه المرة وحينما أخذ يفكران فى وسيلة لاستثمار المال ،  
بعد وصوله ببضعة أيام ، قال انها لم تظهر من دلائل الرضى والارتياح ،  
ما كان يرجو ويتوقع .

فأجابت « انصت إلى يا شادراك . اتنا نعد بالمئات ، وهم يعدون  
بالألوف » وأومأت إلى الجانب الآخر من الشارع « لقد اشتروا عربة  
وحصانين بعد سفرك » .

— أوه . هل فعلوا ذلك حقا ؟ » .

— « يا عزيزى شادراك . أنت لا تدبرى من أحوال الدنيا شيئا ، ونحن  
نبدل غاية جهدا .. ولكنهم أغنياء ونحن مازلنا فقراء » .

ومضى معظم العام فى غير نظام أو اتساق ، وظلت جوانا تنتقل بين  
المنزل والمتجر مكتئبة البال ، شاردة اللب . وظل ولداها يعملان فى المرفأ  
أو فيما حوله .

وذات يوم سأل زوجها : « يا جوانا فهمت من حركاتك أن المال  
الذى كسبته لا يكفي » فأجابت : « نعم لا يكفي . سيشتغل أولادى فى السفن  
التي يمتلكها آل لبيتر ، وكنت يوما من الأيام أعلى منها مركزاً » .  
ولم يكن جوليف رجل كلام وجدال ، فقال هامسا إنه يرى أن

يقوم برحلة أخرى ، ولبت أيا ما يفكر ، ثم عاد من الميناء وقت العصر من أحد الأيام وقال فجأة : « أستطيع أن أحقق آمالك يا عزيزتي في رحلة أخرى إذا . إذا » .

« ماذا تستطيع ؟ »

— « أن أجعلك تعدين بالآلاف بالملئات » .

— « تقول إذا ؟ » .

— « إذا أخذت الولدين معي » .

فامتقع لونها وقالت في سرعة : « لاتقل ذلك يا شادراك » .

« لماذا ؟ » .

— « لا أحب أن أسمع ذلك .. فالبحر مخاطره كثيرة . وأنا أريدهما

أن يدخلوا في الطبقة الراقية دون أن يتعرضوا لأي خطر . وأنا لا أستطيع أن

أدعهما يخاطران بحياتهما في البحر . لا أستطيع ذلك مطلقاً » .

— « حسنا يا عزيزتي لن يكون ذلك » .

وفي اليوم التالي قالت بعد فترة صمت « إذا صحبك الولدان فهل يزيد

الريح كثيراً ؟ » .

— « نعم يصير ثلاثة أمثال ما أربحه بمفردي .. فهما يقومان ، تحت

إشرافي ، بعمل رجلين من أمثالي » . وبعد فترة عادت تقول « زدني حديثاً

في هذا الموضوع » .

إِ قال « أنا واثق أن ولدي ماهران مهارة البحارة المدربين ، وليست

الملاحة في البحار الشمالية أخطر منها عند الشطوط الرملية التي تحوط هذه

الميناء : وقد تدرى با على أعمال السفن منذ نعومة أظفارها . ومهرا فيها مهارة لأجدها في ستة من الرجال .

فسألت في قلتي : « وهل البحر خطر جداً في هذه الآونة . والحرب كما يقولون على الأبواب » .

« الأمر لا يخلو من خطر على أى حال . . . ولكن . . . »

نمت الفكرة وتضخمت وأخذت عليها كل سبيل ، وناء بها قلب الأم ، فنظر جزعا ، غير أن اميلى زاد ترفعها واستعلاؤها ، فلم يسع جوانا أن تقصر عن الحديث في فقرها بالنسبة إلى اميلى . وكان الشبان سلسيين كأبيهما ، فأظفرا استعداداً للرحيل كلما استمعا إلى مشروع هذه الرحلة . ومع أنهما كانا كأبيهما لا يجبان البحر في ذاته ، فقد كانا يتحسمان للمشروع كلما سمعا تفاصيله .

وصار كل شيء الآن رهنا بمواقفة الأم ، ولم تعط كلمتها إلا بعد مدة طويلة ، فسمحت للشابين أن يصحبا والدهما ، ولشد ما طرب شادراك لهذا الرأي . لقد حرصته عناية الله من قبل ، فصلى الله شاكراً ، ولن يتخلى الله عن عباده المخلصين .

قامرت أسرة جوليف في هذا المشروع بكل ما تملك من حطام الدنيا ، وخفضت ميزانية المتجر إلى أدنى حد يضمن الكفاف لجوانا طول المدة التي تستغرقها هذه الرحلة الساحرة إلى نيفوندلاند ، ولم تكن تدرى كيف تتحمل ما يصيبها من ملل إبان غياب ولديها . . . فهما لم يسبق أن فارقا أمهما حتى الآن ، إلا أنها أملا في نجاح التجربة تجللت وصارت .

وحملت السفينة بالأحذية الطويلة والقصيرة ، والملابس وأدوات الصيد والزبد والجبن ، والحبال وأقمشة القلوع ، وما إلى ذلك من البضائع ، لتعود بالزيت والقراء ، والجلود والسماك ، وغيرها مما يجدون في هذه البقاع . وسوف يتبادلون السلع مع الموانئ التي يمرون بها في أثناء الذهاب أوفى أثناء العودة ، عليهم يصيبون بذلك مالا وفيراً .

— ٣ —

أقلمت السفينة في صبيحة يوم الإثنين من أيام الربيع . ولكن جوانا لم تذهب إلى الشاطئ لتوديعها ، فهي لا تطيق أن ترى مشهداً أليماً من آثار تدميرها . وكان زوجها يعلم ذلك ، فأخبرها في الليلة السابقة أنهم سيقلعون قبيل ظهر الغد .

ولما استيقظت في الساعة الخامسة صباحاً ، سمعت هرجاً وانطفاً في الطبقة السفلية ، فلم تهرع إليها ، واستلقت على فراشها تستجمع أشتات قوتها ، وتهديء نائرة أعصابها ، لتقوى على احتمال موقف الوداع . وكانت تحسب أن الرحلة ستبدأ في الساعة التاسعة ، كما بدأت رحلة زوجها السابقة . لكنها حينما هبطت إلى الطبقة السفلى ، رأت كلمات مكتوبة بالطباشير على واجهة المكتب ، ولم تر زوجها ولا ولدا ، وقال لها شادراك في الأسطر القليلة التي خطها على عجل أنهم رحلوا مبكرين ليكفوها مؤونة الوداع الموجه . وكتب الولدان تحت كلامه : « ودعا يا أماه » .

فهرعت إلى رصيف الميناء ، وحدقت ببصرها فيما يلي المرفأ من مياه زرقاء ، ولكنها لم تتبين على الأفق غير صواري السفينة (جوانا) وأشروعها ،

ولم تقبين على ظهرها أنسيًا . فقالت : « ويلي لقد ذهبوا . . وأنا التي أرسلتهم » وانطلقت تبكي بكاء جنونياً . ولما بلغت دارها كاد قلبها ينحطم ، حينما وقع بصرها على كلمتين مكتوبتين بالطباشير : «وداعاً يا أماء » غير أنها لما عادت إلى حجرتها الأمامية ، وأرسلت نظراتها إلى منزل إميلي ، أضاءت وجهها النحيل إشراقاً الاتصار ، فستخلص عما قريب من ذل الفقر والضعف . والواقع أن تفضل إميلي واستعلاءها لم يكونا سوى وهم طاف بخيال (جوانا) ، فقد كانت لا تملك أن تخفى رخاء حالها ، ورق معيشتها ، بالنسبة لحال صاحبها ومعيشتها . ولكنها إذا لقيت صاحبها — وهي لا تلقاها الآن إلا قليلاً — حاولت جهداً أن تهوّن من شأن الفوارق الاجتماعية بينهما .

مر الصيف الأول ، وصار يشق على جوانا أن تكفل لنفسها أسباب العيش ، فقد تضادل متجرها حتى لم يبق منه غير الواجبة والخزانة . وكانت إميلي أهم زبائننا في الحقيقة . وكان استعدادها المشفق لشراء أى شيء ، دون اكتراث بنوعه أو ثمنه ، يؤذى كبرياء جوانا . لأن هذا أسلوب المتفضل بالسمح ، بل أسلوب المحسن البار .

ثم مضى الشتاء الطويل الكئيب . وكانت جوانا قد أدارت المكتب إلى الخائط ، لتبقى على كلمات الوداع المخطوطة عليه بالطباشير ، والتي لم تطق محوها . . وطالما نظرت إليها بعينين دامعتين . وعاد ابنا إميلي الوسيان في عطلة عيد الميلاد . وترامى إلى مسامع جوانا أنهما سيلتحقان بالجامعة . . أما هي فلا تزال حبيسة الأنفاس كأنها الفريقة ولكن ، ما هو إلا صيف واحد وتنتهي الحجة .



ولما قارب الموعد نهائيه ، زارت اميلي صديقتها . فقد سمعت أن جوانا أخذ يساورها القلق لأن أشهرها كثيرة قدمضت دون أن يصلها خطاب من زوجها أو ولديها . وكانت اميلي تمخّال في ثياب حريرية هفاقة رفاقة ، حين دخلت منزل جوانا وتسلمت في صعوبة من فتحة الخزانة إلى حجرة الجلوس ورا المتجر . فقالت لها جوانا : « أنت ناجحة كل النجاح ... وأنا فاشلة على طول الخط »

فأجابت اميلي « لماذا تظنين ذلك ؟ لقد سمعت أنهم سيعودون بثروة »  
— « آه ! وهل سيعودون ؟ إن الشك اعبء تنوء به المرأة .. الثلاثة كلهم في سفينة واحدة .. تصورى .. ولم أسمع عنهم أى نيا منذ أشهر »  
— « لا تتعجلي الشري يا جوانا .. فلا يزال في الوقت متسع »  
— « لقد عانيت في غيابهم الأمرين »

— فلماذا إذن سمحت لهم بالذهاب ؟ لقد كنتم في حال لا بأس بها »  
فانبرت لها جوانا وقالت لها في حدة « أنا التي حملتهم على الذهاب وسأخبرك بالسبب .. لقد شق على أن نقضى حياتنا في فقر وضنك ، بينما ترفلين — أنت — في حلل النعيم .. هاءنذا قد صارحتك ولك أن تكرهيني إذا شئت »

— « لن أكرهك ما حييت يا جوانا »  
وأثبتت الأيام صدق اميلي . فقد ولى الخريف . ومضى موعد رجوع السفينة إلى الميناء . ولكن لم تبد السفينة (جوانا) على مقربة من الشواطئ الرملية . لقد آن أوان القلق . وحق لجوانا جوليف أن تُبراع وتتطير

فجلست إلى المدفأة شاردة اللب ، يقشعر بدنها لكل خطرة من خطرات الريح . لقد كانت تخاف البحر وتمتته وترى فيه الغادر الماكر القلِّب ، الذى يشمت بأتراح النساء وأحزانهن . ولكنها ظلت تهون على نفسها وتقول : « لا بد — مع ذلك — أنهم سيعودون »

وذكرت قول شادراك قبل الرحلة : إنهم إذا عادوا سالمين وقد رجحت تجارتهم ، ذهب إلى الكنيسة كما ذهب من قبل ، وسجد هو وولده شكراً لله على النجاة . . فصارت تختلف على الكنيسة فى الصباح وفى العصر ، وتجلس فى المقعد الأمامى قرب درج المذبح ، وعيناها معلقتان بالدرج الذى ركع عليه شادراك فى ميعة شبابه فانها تعلم بالدقة النقطة التى ارتكزت عليها ركبتاه منذ عشرين شتاء . وتذكر منظره وهو راكع ، وقبعته على الدرج إلى جانبه . . إن زوجها تحرسه عناية الله . . ولا بد أن يعود إليها ، ويركع هناك ثانية ، وابناه إلى جانبه كما حدثها ، جورج إلى هذا الجانب ، وجيم إلى ذلك . وأدمنت النظر إلى ذلك الموضع أثناء صلاتها حتى خيل إليها أنها ترى الثلاثة راكعين . . الهيكلان النحيلان على الجانبين والهيكل الأضخم بينهما ، وأيديهم متشابكة ورءوسهم تلقى ظلها على الحائط الشرقى . ونما الخيال حتى صار خبالاً . فلم تستطع أن تدير عينيها الكلدودتين إلى الدرج ، دون أن تراه عليه راكعين .

غير أنهم لم يرجعوا . إن القدر رحيم . بيد أنه لم يشأ بعد ، أن تقيل روحها من عثرتها ، تكفيراً عما ارتكبت من خطيئة ، حين سحرت زوجها وولديها لإرضاء طموحها ، ولكن سرعان ما تجاوز الأمر أن يكون

تكبيراً . وأشرفت جوانا على هوة سحيقة من اليأس ، فقد مضت أشهر على موعد وصول السفينة دون أن تصل

وكان يتراى إلى مسامعها أو يتراءى لعينها ما يبشر بوصولهم . فهي كلما صعدت إلى قمة التل وراء الميناء ، وأرسلت بصرها إلى القناة والبحر من ورائها ، أحست إحساس الواصل أن نقطة صغيرة تبدو على الأفق ، وتشق عباب الماء المنبسط أبداً . وهذه النقطة هي لامراء طرف شراع الجوانا . وإذا سمعت وهي في بيتها صيحة أو حركة صادرة من الطريق المؤدية إلى الميناء ، هبت واقفة وهي تصيح : « هؤلاء هم »

غير أنهم لم يكونوا من توهمت . وجعلت في عصر كل يوم من أيام الأحد تشهد الأشباح الخيالية كعثة على الدرج ، ولكنها لا تشهد الأشخاص . وخلا المتجر من بضاعته ، وكأنه أكل ما في جوفه . لأنها في شرودها وحزنها وعزلتها لم تشتت أى قدر من البضائع ، فانصرف عنها الزبائن جميعاً .

وحاولت إمبلى لستر أن تمد يد العون للمرأة المنكوبة . ولكن معوتها كانت تقابل بالرفض دائماً . فكلما عرضت إمبلى معوتها ، ردتها جوانا في صوت مخنق أجش ، قائلة : « أنا لا أحبك .. ولا أطيق أن أراك » . فتجيبها إمبلى « ولكنى أريد أن أساعدك ، وأسرى عنك يا جوانا » .

— « أنت سيدة محترمة ، ذات زوج ثرى ، وولدين نجيبين فماذا

تريدين من ثكلى مثلى ، متهدمة متحطمة ؟ »

— « أريد يا جوانا أن تقيمي في منزلي ، وأن تغادري ذلك المكان  
الموحش الكئيب »

— « إفضي أنهم جاءوا ولم يجدوني في منزلي .. أتريدن أن تفرقي  
بيني وبينهم ؟

كلا .. سأظل هنا .. وأنا لا أحبك ، ولا أستطيع أن أشكرك مهما  
أبديت من عطف وشفقة »

على أن جوانا لم تستطع بمضى الزمن ، أن تدفع إيجار الدكان والمنزل  
بغير أن يكون لها دخل . وأكدت الناس لها ألا جدوى من التعلق بأهداب  
الأمل في عودة شادراك وولديه . قبلت على مضض أن ترحل إلى منزل  
إيميلي لستر ، وكأما تنزح إلى ملجأ .. وخُصص لها في هذا المنزل حجرة في  
الطبقة الثانية ، تدخل إليها ، وتخرج منها كما تشاء دون أن تختلط بالأسرة .  
وأغبر شعرها ، ثم اشتعل رأسها شيبا ، وتغضن جبينها وأخذ هيكلها ينحني

ويضمحل . ولكنها ظلت مقيمة على أملها في عودة المفقودين . وكانت

إذا قابلت (إيميلي) على الدرج قالت لها في حدة : « أعلم لماذا جئت بي إلى

هنا . انهم سيرجعون ، وستخيب آمالهم إذا لم يجدوني بالمنزل ، وربما عادوا

من حيث أتوا . وبذا تتأرين لنفسك ، وتنتقمين مني لاغتصاب شادراك »

وكانت إيميلي تتحمل هذا التبكيت من الروح الجريح المحزون ، وكانت

واثقة ، كما يثق أهل هافنبول جميعا ، أن شادراك وولديه قد غاصوا في قاع

البحر . ومضت سنوات ، وسلم بفقد السفينة .. ومع ذلك فقد ظلت جوانا

كما أيقظها صوت في الليل ، تنهض من فراشها وتلقى نظرة على المتجر

المقابل ، مستعيئة في ذلك بضوء الصباح الخافت المرتعش ، لتري من صاحب الصوت فلهله صوتهم

وفي ليلة رطبة مظلمة من ايامي ديسمبر ، بعد ست سنوات من سفر الجوانا ، كانت الريح تهدر من البحر ، حاملة ضبابا مريبا يغشى الوجه كما يغشاه قماش ناعم مبتل ، وكانت جوانا قد صلت صلاتها المعتادة من أجل الغائبين في حرارة وثقة لم تستشعرها منذ أشهر ، ونامت حوالى الساعة الحادية عشرة . ولكنها لم تلبث أن استيقظت فجأة فيما بين الساعة الواحدة والثانية صباحا . فقد سمعت من غير شك وقع أقدام في الطريق ، كما سمعت صوت شادراك وولديه عند باب المتجر . فقفزت من فراشها . واختطفت شيئاً لا تكاد تعرفه ، لتغطي جسمها ، وهبطت درج إمبلى القسيح المفروش بالأبسطة ، ووضعت الشمعة على النضد بالصالة ورفعت المزلاج والسلسلة ، وخرجت إلى الشارع . . وعاقها الضباب الذى يهب من الميناء أن ترى المتجر ، مع أنه جد قريب . . غير أنها رأته وذهبت اليه في الحال . . كيف ذلك ؟ . . لا أحد هنا !!

فجعلت المرأة التمسة تذرع الشارع ذهابا وجيئة ، عارية القدمين ، دون أن ترى أحدا . ثم جعلت تفرع بكل قوتها ذلك الباب ، الذى كان يوما بابها . . لعلمهم دخلوا ليقضوا فيه سحابة الليل حتى الصباح ، كي لا يزعموها .

ومضت بضع دقائق قبل أن يطلّ عليها من النافذة العليا ، ذلك الشاب

الذى اشترى المتجر . ويرى هيكلا آدميا واقفاً تحت النافذة ، والملابس لا تكاد تستره .

فسأله الهيكل « هل أتى أحد ؟ »

— « أوه .. مسز جوليف . لم أدر أنه أنت » كذلك قال الشاب فى

عطف وإشفاق ، فقد كان يعلم ما فعل بها تشبهاً باليأس .. بأمل تقطعت  
أسبابه . . .

« كلا يا مسز جوليف لم يأت أحد »



# طبقة الاعتماد بمصر

Bibliotheca Alexandrina



0412546

العدد ١٠٥ ملية